إلى القارئ

هل يحق للمتثقف ـ ولا نقول « المثقف » تجنبا لما قد ينطوى عليه اسم المفعول من سلبية وانتفاء لمعانى الجهد والخلق وتجاوز الذات المستمر ـ ان يتحمل مسؤولياته كمواطن وينغمس فى حياة الناس اليومية ويضطلع بواجبات سياسية فيكون ملتزما لا كمفكر فحسب ـ ازاء نفسه وبالاستناد الى سلم القيم الخاص به ـ بل كذلك كانسان موجود فى ملابسات بعينها ، يصل فى سلوكه القول بالفعل ويجسم ـ أو يحاول ـ الفكرة واقعا ملموسا ؟

توجه الكاتبة الوجودية «سيمون دى بوفوار» فى الجزء الثالث من يومياتها الذى صدر منذ أسابيع بعنوان « قوة الاشياء » ، اللوم الشديد على بعض المفكرين ـ وخاصة مالرو ـ الكاتب الشهير والوزير فى حكومة فرنسا ـ الذين قبلوا بعض « الوظائف » السياسية وانبروا يشيدون بفلسفة الحكم الذى يتحملون مسؤوليته ، ملاحظة ان « وظيفة » الكاتب أو رجل الفكر انما هى «الشهادة» على ما يجرى حوله ، وتقييم الرجال والاشياء وتسليط الاضواء على هذه « المغارة الظلماء » ـ على حد قول افلاطون ـ التى هى مجتمعنا اليوم !

... ثم تستثنى رجال الفكر والمثقفين فى البلاد النامية ، خصوصا اذا اعوزت هذه البلاد الاطارات الكفءة .

والمسألة ـ كما ترى ـ من الاهمية بمكان . وكم وفق نادى « أبو القاسم الشابى » عندما دعا نخبة من المثقفين بهذه البلاد ـ ومنهم من دعاه داعى الاستقلال وواجب التشييد فى تونس الجديدة الثائرة الى الاضطلاع بمسؤوليات جسيمة فى الحكم والقيادة الجماهيرية ـ الى تحليل هذه القضية وتحديد رسالة المتثقف فى البلاد التى هى فى طريق النمو !

ونحن اذ نعد قراءنا الكرام بالعودة الى هذا الموضوع فى أعدادنا القادمة نريد أن نلاحظ فى هذه الكلمة أن الواجب والوفاء لاسمى معانى « الفكر » يقتضيان رجل الفكر ان يعمل ـ عملا كاملا ـ صادقا بالفكر واللسان والجوارح ـ من اجل تجسيم ما يراه الحق والخير والجمال والعدالة وكل القيم التى هى حلم البشر والتى « يسبق » المفكر معاصريه فى ادراكها وتشخيصها بعد أن « يصدمهم » بنقد ما جف وجمد من المعانى الموروثة والتصورات الجماعية السلبية ، سواء انتسب الى بلاد متخلفة أو متقدمة .

فالمتثقف اذن معول يحطم الاصنام وصوت مجلجل يوقظ الضمائر ونور يهدى الى سواء السبيل ، ثم هو جندى يساهم فى الثورة من أجل الغد الاسعد والعالم الافضل ، وهو مدعو بعد تحسس وتوليد القيم الجديدة الحية الى العمل الصادق المجرد من أجل تحقيقها ، بالاشتراك مع الجماعة التى اليها ينتسب ومعها يعيش .

على هذا الاساس تلعب النخبة دورها التاريخى وتجتنب الانزوائية العقيمة والثورية الفوضوية وتكون فى طليعة القوى المحركة للتاريخ السائرة بالبشرية الى غدها المشرق وربيعها الزاهر .

الفكر

الشباب والالتزام

بقلم : محمد مزالي

انه لشرف عظيم حقا أن يتفضل علي السيد الرئيس ، ويتيح لي فرصة الحديث اليكم في موضوع الشباب والالتزام (1)، وإني أشعر كما تشعرون بهذا الشرف العظيم إذ أقف أمام الرمز الحي الصادق للالتزام في أسمى قيمه وأشمل معانيه ، أمام البطل الذى التزم منذ نعومة أظفاره خدمة الوطن والتضحية في سبيل المبدأ، وفي سبيل خدمة الانسانية، لا قولا فقط، بل قولا وفعلا فوفق الى الخروج بالنظريات وأحلام الشباب الى حيز الواقع والفعل وتلك هي السعادة ! أليست السعادة كما قال أحد المفكرين أن تحقق الكهولة أحلام الشباب ؟

وعندما نتصدى لمعالجة موضوع الالتزام، فإنما يجب أن نستوحي من حياة رئيسنا وأعماله وأقواله وصموده وصبره ومصابرته المعاني والعبر، وأن نتخذه مثالا أعلى ومرجعا بالنسبة لنا نحن اطارات الشباب.

الالتزام أيها الاخوان، كلمة خطيرة، كلمة سحرية تؤثر كثيرا على الشباب وتحتل من تفكيره وسلوكه المنزلة الكبرى، وربما يتساءل المتسائل لماذا نحتاج الى الحديث عن الالتزام، ونحن جميعا ملتزمون، ونحن جميعا بوصفنا اطارات شباب واطارات أمة اخترنا أن نلتزم . ولكن لا بأس أن نلقي بعض الاضواء، وأن نتعمق في التحليل وأن نحدد مفهوم الالتزام باعتباره معنى انسانيا، وباعتباره معنى أخلاقيا ومعنى وطنيا خصوصا وأن الكثير من المتفرجين، الكثير من الذين أساؤوا فهم الحرية يتشدقون بالقول أن الالتزام ينافي الحرية وأن الشاب عندما يلتزم يتخلى عن حريته ويصبح كالجندي أو كالالة يساق ويدفع الى الواجبات دفعا دون أن يشارك في وضع أسباب سلوكه ودون أن يتصور غاياته بينما كرامة الانسان في حريته وفي ألا ينساق مع التيار العام. وألا يتأثر بأوامر تأتيه من الخارج. وهذا بطبيعة الحال خطأ، وأن

(1) محاضرة ارتجلها مدير هذه المجلة بمحضر السيد رئيس الجمهورية فى افتتاح ملتقى اطارات الشباب بولايات سوسة والقيروان والوطن القبلي وذلك يوم السبت 18 ديسمبر 1963 فى مدينة المنستير

اجتماعنا هذا دحض له وحياة حزبنا وحياة رئيسنا واستقراء أحوال البشرية في ماضيها البعيد وحاضرها القريب ينفي ذلك فالذي يدعي الحرية ويخاف من أن تداس حرمة الشخص الفرد، من حيث هو فرد، ثم يتخلى عن واجبه ويتمسك بحزية الجبن أو بحرية الكسل أو بحرية التفرج ولم يتضامن مع مجتمعه ولم يقف موقفا ايجابيا من قضايا وطنه وقضايا الانسانية انما يخون معنى الالتزام ويذكرنا بالسفسطائيين

وتاريخ تونس في كفاحها يدل على هذا. فبينما التزم الشباب التونسي المتحزب في صفوف الحزب الحر الدستوري التونسي والمنظمات القومية وكافح أكثر من ربع قرن وضحى بما ضحى واستشهد منه من استشهد وكانت النتائج التي نراها اليوم والتي هي مفخرة حقا وكسب للانسان ومرحلة حاسمة في تقدم البشرية بينما نرى هذا ونلمسه نلاحظ من جهة أخرى هؤلاء المتفرجين الذين يتمسكون بالخيالات الفارغة والاوهام الواهية والتندر البليد والتفلسف العقيم نراهم لم يفعلوا شيئا، ونراهم، أكثر من ذلك، يغطون جبنهم أو خوفهم أو كسلهم أو بالخصوص أنانيتهم بالنظريات والانتقادات والتعليقات الزائفة، وقد ظهرت نفس النزعة أي نزعة الانانية، وذر الرماد في أعين السذج، وكذلك نفس الاتجاه غير الاجتماعي وغير الاخلاقي، منذ بدأت تونس كفاحها من أجل البناء والتشييد، فبينما ينكب الشعب كله بجوارحه وعقله ويضحي من أجل خلق مجتمع فاضل متكامل مزدهر نرى هذه النزعة تتفشى في بعض الافراد القلائل والحمد لله الذين يظنون أنهم يعطوننا دروسا في المذهبية العميقة وفي الحرية الاصيلة، ولكنهم بسلوكهم هذا لا يتجاوزون القيام بدور المتفرج ويأخذون من المجتمع ويعيشون من عرق جبين الرجال الرجال ولا يفعلون شيئا ! .

هذا التمسك بالحرية الزائفة كثيرا ما ينطلي على بعض الشبان في مقتبل العمر حيث يمر هؤلاء المراهقون من طور التقليد والاخذ الى طور البحث والتنقيب وتبين الجديد وتحسس معاني الحياة والانتقال من منزلة الشخص الى منزلة الشخصية هؤلاء الشبان الذين لما تكتمل قواهم العقلية ولما يتخذوا لهم مذهبا أو يرسموا لانفسهم طريقا واضحة قد تنطلي عليهم الحيلة وقد يتيهون في سماء نظريات كاذبة زائفة ويلوذون بالحرية وما أدراك ما الحرية ! واذن فلا أقل من أن يجتمع الشبان وتجتمع اطاراتهم وينظروا في معنى الالتزام الحقيقي الانساني ويسبروا غوره

ويوضحوا معالمه ويبينوا للشبان كيف أن الالتزام هو الحرية وهو خلق وهو عمل مجد لسعادة الفرد وسعادة المجتمع.

هل الالتزام في حقيقته التضحية بالحرية ؟ لا أعتقد ذلك، لان الالتزام معناه اختيار وبذل عن طواعية وسخاء تلقائي : أنا ألتزم معناه أنا أختار أعتنق مذهبا، انخرط في حزب، أقف حياتي في سبيل قضية لكن قبل أن ألتزم كنت حرا في الاختيار شأني شأن الذي يختار الزواج فهو قبل أن يتزوج حر في أن يتزوج وفي ألا يتزوج، فإذا اختار التزوج فقد اختار عن طيب نفس أن يضيق من حريته في سبيل غرض أسمى وهو بناء مجتمع صغير والمساهمة في استقرار المجتمع الكبير واسعاده، فلا يمكن أن نقول أن الذي اختار أن يتزوج قد فقد حريته لان اختيارك التنقيص من حريتك دليل ساطع على مدى حريتك وعلى مدى ازدهار حريتك ولو لم تكن حرا لما اخترت أن تختار ولما اخترت أن تلتزم . وكذلك اختيار المحامي الشاب الحبيب بورقيبة للالتزام في سبيل خدمة القضية الوطنية وتحرير الوطن ومقاومة الإستعمار وتجشم المشاق والتضحية بالسعادة في معناها الضيق والمال والثروة وزهرة الشباب والاقبال على الموت في سبيل الحياة الحية لم يفرضه عليه أي شخص ولا أية قوة وانما كان بوازع نفساني وبحكم سخاء طبيعي ونظرية شخصية تستمد وجودها من سلم قيم أخلاقي أعلى بل أن هذا المحامي الشاب وهذا الزعيم الفذ عندما كان في صحاري الجنوب التونسي تعصف به العواصف وحيدا أمام "لا معقولية" بعض البشر "ولا معقولية" الطبيعة وكان اليأس يحاول التغلب عليه كان هو في هذا الوقت يرجع الى نفسه الى ضميره ليستمد القوة على الصمود ويشعر وهو المذلول ماديا، المنفي، بأن حريته أقوى من أي وقت مضى وأنه حر أكثر من "الاحرار" الذين يجوبون الطرقات ويدرك معنى هذه الحرية العظيمة والقوة الانسانية الحقة، عندما يقول عنه الطاغية (بروتون) أنه أصبح ملقى على الارض منهزما وأن الشعب التونسي نسيه فيجيبه وهو الوحيد بأنه اختار أن يكافح ولو أن ثمرة الكفاح تبدو بعيدة أو ميئوسا منها، ويستشهد له بأقوال بعض المفكرين الذين كان يجب على الطاغيه أن يعرفها لانه من أوروبا، ويؤكد أن طعم الكفاح في الكفاح نفسه وأنه ليس من الضروري أن يكون الامل عارما لينصرف الانسان الى العمل وليس من الضروري أن ينجح المرء كي يستمرويثابر، فقيمة الكفاح في الكفاح نفسه كما أن قيمة الالتزام في الالتزام نفسه وقيمة الحرية في شعور الانسان بأنه حر

وحتى عندما يزج به السجـان في غياهب الزنـزانة فهو يشعـر أنـه أكثر حرية من سجانه لانه يعلم لماذا يفقد حريتـه أما الطاغية فهو لا يعـرف من ذلك شيئـا.

وهذا يذكرنـا بمعنى العظمـة الانسانية وبسر العظمـة الانسـانية مما حلّله (باسكال) اذ قـال إن الانسان ليس الا قصبـة، ولكنهـا قصبة مفكـرة، وحتى عندما تتظافر عواصف الطبيعة وأهوال الكون على محق هـذه القصبة فالقصبـة أعظم من الطبيعـة وأعظم من أهوال الكون، لان القصبة المفكـرة تدرك أنهـا مفكرة وتدرك أسباب ضعفهـا المادي، أمـا الطبيعـة الجامحة فهي لا تدرك من ذلك شيئـا.

ذلك هو سـر عظمـة الانسـان وسر الالتـزام وسر الحريـة الحقيـقية واذن فالالـتزام لا ينـافي الحرية، الالـتزام يـرادف الحـرية، بـل هو الحريـة الحقيقيـة الاصيلة، الحرية التي هي تبلور لعظمـة الانسـانية وشاهد على ارتقـاء الانسان الى منزلـة الانبيـاء.

ثم أن هذا الالتزام وقد صح أنـه لا ينافي الحريـة بل يؤكدهـا ويصدر عنهـا ضرورى للمجتمـع، والحيـاة الاجتمـاعية تفرض الالتزام، لانهـا انما تنبني على أساس هذا العقـد الاجتمـاعي المعنوى الذى يربط بين أفراد الجماعة البشـرية الواحدة ويجعلهم يشعـرون بتكـافل وتكامـل وبأن كل واحد منهم يسد حاجة غيره وبأن كل واحد منهم يعطي ويبـذل بقدر مـا يأخذ فإذا مـا كثر الاخذ ونقص العطـاء، وتمتع الفرد بمجهـود الجمـاعة وبعرق جبين الغير ولم يعط كانت الانانيـة واختـل التوازن وانتفت الاخلاق وهـكذا فان الالتـزام شعور كل فـرد في نطـاق عمله ومجهـوده بأنـه يقوم بوظيفـة اجتمـاعية وانه يسبح بحمد المجتمع الذى فيـه ينشأ ومنه يعيش واليـه يرجـع. ثم اننـا اذ اعتبـرنا الـديمقراطيـة قيمة في حد ذاتها وانه ليس للانسان الا ما سعى وان البشر خالقهم الله سواسية وان افـضلهم عـند الله وفي نـظر المجتمع اسبقـهم للعمـل واكثرهـم ايجـابية في الانتاج فإن الفرد أو المواطن تزداد قيمتـه وتعظم بقدر مـا يكون أوفر فـائدة وأبعد اشعاعـا في المجتمع. وهكذا لا ينتفـي الالتزام مع الكرامة البشرية ولا حتى مع اللـذة المعنوية الشخصية التي قد يشعر بها الانسان، بل هناك تأكيد وتقوية لمعنى الشخصية الانسانيـة ولمعنى السعـادة الحـق

ثم أن اختيـار الدستورى أو اختيـار المتحـزب أن يلتزم بالعمل وبالتضحية وبالجهـاد في نطـاق الحزب أو المنظمة ليس معناه — وأنتم تمارسون هذا

الواقع منذ ثلاثين سنة في مدرسة الحبيب بورقيبة وعائلة الحزب العتيد — أن يكون دوره مجرد التنفيذ والطاعة العمياء وانما هو أن يساهم مساهمة ايجابية في وضع الخطط وتشييد المذهب وأساليب العمل وانارة الزعماء الذين تنتخبهم دوريا القاعدة في مؤتمراتها الوطنية. وليس في هذا ما ينافي أن يكون القائد أو الزعيم سباقا الى جوهر الحقيقة الى جوهر الخير والى جوهر الحق وان يكون استاذا كبيرا يلقي على اتباعه ومريديه هذه المعاني ويبسطها ويحللها، ويجعلها في متناول الاطارات العليا والمتوسطة التي تفكر بدورها في جلساتها العامة، وأيامها الدراسية، في هذه المعاني تنقدها وتحللها وربما أفادت القيادة، وبذلك ننتهي جميعا الى الاسلوب الايجابي الفعال الذي به نستطيع أن نخرج بأفكارنا من حيز الخيال والقوة، الى حين الواقع والحياة، لان قيمة الزعامة وقيمة الملتزم ليست فقط في تشييد النظريات والسباحة في سماء النجوم والمعاني المجردة، فهذه رياضة سهلة، ولكن قيمة الرجال وقيمة الملتزم في مدى توفقه الى نقل هذه المعاني من التجرد والخيال والابهام الى الواقع والفعل اعتمادا على الشعب وجعلها ملموسة تنفع الناس، وبفعل هذه العملية يكون الحوار بين القمة والقاعدة، ومن خلال هذا "الجدل" تبدو حرية جميع الافراد وتتجلى بالخصوص مساهمتهم في البناء والتشييد وتبرز قيمتهم، وما أودعهم الله من طاقة وعبقرية فتتحقق الافادة والاستفادة وهكذا فإن الالتزام لا يعني الطاعة العمياء بل يقتضي العمل الايجابي ويفرض الحوار والحرية.

هناك — لا محالة — خطر في الالتزام وتاريخ الانسانية يفيدنا، أنه انقلب أحيانا الى طاعة عمياء، ولكن نحمد الله على أن هذا غير موجود في بلادنا وفي أوساط شبابنا، وعلى اننا تغذينا بروح الديمقراطية وروح الحرية البناءة الانشائية، وعلى ان سياسة رئيسنا وحزبنا تهدف الى تفتيح البصائر وتوسيع الآفاق وبث نور العلم والمعرفة، بل أقول انها تهدف الى تقوية روح التمرد على الواقع الذي لا نرضاه، التمرد على مخلفات القرون الخوالي، وتؤجج الشعور بالكرامة وتضاعف الطموح سواء في ميدان العلم والمعرفة أو الثقافة، أو الإقتصاد أو الاجتماع، أو الصحة، على أساس أن الحياة كفاح، وان الانسان يجب عليه الا يرضى بالدون .. وانه اذا تعلقت همة بني آدم بالمستحيل لناله ، وان الانسان خليفة الله في هذه الارض يستطيع أن يشيد خير العوالم ، وأن يخلق المعاني الجديدة والقيم العليا، ويقلب الشقاء سعادة والجهل علما والمرض والتعاسة صحة وازدهار وانه

بهذه الروح التمردية وبالقضاء على روح التواكل، تم تحرير نصف تونس – تحرير المرأة – وسطع نور العلم وعمت نعمة الثقافة أوساط شبابنا ، وتحققت النهضة الزراعية وارتفع مستوى المواطن البسيط ونما الانتاج والثروة بادخال أساليب عصرية، وتبدلت آلة التفكير وضبط المعنى الصحيح للسعادة والكرامة، واحتل معنى الشغل الشريف المرتبة اللائقة به وبعبارة أخرى استعيض عن سلم القيم القديم بسلم قيم جديد متجدد منسجم مع أمانينا ومع تصورنا للسعادة ولو لم يكن زعماؤنا ورئيسنا وحزبنا مؤمنين بهذا الشعب، جادين في تحريره مخلصين له، لابقوا الظلام كما ورثناه وغذوا روح التواكل والقناعة، ولما فتحوا في وجوههم هذه "الواجهة" (كما يقال) ولما خلقوا هذه الحاجات وهذا الطموح في الشباب والشعب، ولكن الايمان بمستقبل هذه الامة والايمان بالحرية هو الذي جعلنا نهيء أسباب الانطلاقة ونمهد للمستقبل البسام ونفتح المجال للشباب وللقيم الجديدة !. هو الإيمان بأن هذه الارض الطيبة المعطاء يمكن وقد أزيل عنها الاستعمار والتقهقر الموروث والجهالة والغشاوة، أن تنبت العباقرة وبأن هذا الشعب يمكن أن يهتدي الى مصلحته ويحمل مشعل "الغد السعيد" على مدى الدهر، ويضمن للأجيال الصاعدة السعادة والحرية.

ثم أن هذا الالتزام اذا نظرنا اليه من زاوية الشباب وانتقلنا به من العام الى الخاص وجدنا اطارات الشباب تجتمع في كل مناسبة سواء في عطل الشتاء او الربيع، او في العطلة الكبرى، او في المناسبات القومية، تحت لوائه وتنظر في مستقبلها، وتخط البرامج للمستقبل وهي تستوحي معانيه وتهتدي بهديه.

فإذا نظرنا الى ميثاق الشباب الذي وضعتموه بأيديكم وكان عصارة أفكاركم ومهجكم وجدناه يرسم اطارا للالتزام الحقيقي، فهو يحدد واجبات الشاب نحو نفسه من حيث هو شاب وواجباته نحو وطنه من حيث أنه مواطن ، وواجباته ازاء البشرية من حيث هو انسان، ولكن هذا ليس الا اطارا، فعندما نقول ان الشباب مطالب بأن يحقق الاشتراكية ومطالب بأن يركز الكرامة، ومطالب بأن يعمل من أجل الازدهار فإنما نرسم له قيما جديدة لكن ما هي مقومات هذه الغايات وما هو النهج الموصل اليها ؟ ذلك هو عملكم ، وذلك هو ما ستتفتق عنه أفكاركم، وذلك هو

المجال الفسيح المتروك أمامكم، تلك هي الصعوبة والمسؤولية وذلك هو عنوان فخركم و... حريتكم.

ثم إننا نؤمن أيها الاخوان بتضامن الاجيال. ونعتقد أن قيما جديدة كامنة فيكم وأن نسغا جديدا سوف يتفجر عن قرائحكم، يكفي رئيسنا وحزبنا شرفا أنهما وفرا لكم أسباب تفتح ملكاتكم وظهور القوى الكامنة فيكم وأن تونس الغد محتاجة الى دم جديد لا يصدر الا عنكم، ولا يمكن أن يأتي الا من عصارة أفكاركم.

ان هذا الالتزام اختيار حر، هو مساهمة وايجابية في العمل، وهو بالخصوص افساح المجال الى المستقبل وتهيئة أسباب التضامن بين الاجيال، ، إذ قيمة الشباب في اختياره للشخصي، قيمته في مدى إلتزامه ومدى ما يفيد به الغير لان الخلود يكتب والسعادة الحقيقية تتوفر لمن يفعل الخير ويساهم في سبيل اسعاد الغير، لمن يتبني قصية نبيلة ويلتزم خدمتها، ويجعل سعادته رهينة تحقيقها ولا أكشف سرا — اذا قلت ان الرئيس الجليل رغم الاتعاب، ورغم السجن والتعذيب والحرمان الذى قاساه والمسؤولية التي تحملها، أوفر التونسيين سعادة لانه يشعر أنه خدم هذا المجتمع وهذا الوطن وانه كرس حياته في سبيل قضية سامية وانه نجح في تغيير أوضاع وخلق مجتمع جديد حر أصبح أمره بأيدى أبنائه لاول مرة في التاريخ ولانه بالخصوص يشعر بأنه كان ولا يزال مفيدا وانه قبس من نار الحي وابن بار لهذا الوطن فهو إذ يحاسب نفسه وينظر الى ماضيه وفيما خلفه من أثر، يشعر بهذه اللذة المعنوية التي لا تتأتي الا للواحد بعد الواحد على مر القرون. وارجو اخواني أن تتوفر لكم القوة والصدق والقوة على الصدق وطول النفس والعبقرية والشجاعة الادبية، والقدرة على تحمل المسؤولية وهذه المعاني والشيم التي هي مقومات الالتزام الحق الاصيل حتى تعيشوا بعض ما عاشه رئيسنا وتبذلوا في سبيل الوطن بعض ما بذله، وتستحقوا بعض عظمته ، اذ في ذلك — لو تمعنتم — سر الخلود.

محمد مزالي

بنزرت

شعر : عبد المجيد بن جدو

لَوْلا عَنَاقِيدُهَا مَا صَفَّقَ السَّاقِي
وَلا جَرَى بِالهَوَى قَلبٌ، لِمُشْتَاقِ
وَلا انْثَنَى طَرِباً يَتْلُو صَبَابَتَهُ
فَيَسْتَثِيرُ بِهَا غَوْرِي وَأعْمَاقِي
وَيَسْتَحِثَّ بِهَا خَطْوِي إلى بَلَدٍ
مَا شَاهَدَتْ مِثْلَهُ عَيْنُ لِعُشَّاقِ
وَلا اسْتَثَارَتْ رُؤَاهُ دَمْعَتِي فَهَمَتْ
مِنْ شِدَّةِ الحُبِّ وَالوُجْدَانِ أشْوَاقِي
وَلاسَرَتْ رِعْدَةٌ دَكَتْ مَفَاصِلَهُ
مِنْ طُولِ وَجْدٍ وَتَسْهِيدٍ وَاشْفَاقِ
لَوْلاَكَ يَا حُبّ مَا حَنَّتْ لَوَاعِجُهُ
إلى المُنى أوْ جَرَى دَمْعٌ بِآمَاقِي
وَلا أرَتْهُ ظِلالَ الحُبِّ وَارِفَةً
قَدْ ضَاعَ مِنْهَا أرِيجٌ، يُدْنِفُ الرَّاقِي
وَهَلْ دَرَى الرَّوْض – لوْلا مَا نُكَابِدُهُ
شكوَى المُحِبَّيْنِ فِي شَدْوٍ وَإطْرَاقِ
يَا مَنْ عَرَفْتَ عَصَا مُوسَى وَمَا صَنَعَتْ
فِي أهْلِ فِرْعَوْنَ مِنْ عَجْزٍ وَإرْهَاقِ
هَلْ أنْتَ تَدْرِي بِسِحْرٍ – لسْتُ أعْرِفُهُ

فِي غَيْرِ هُدْبٍ لِحَسْنَـاءٍ وَأَحْـدَاقِ
يَا مَنْ نَشَقْتَ شَـذَى الـوَادِي ـ أَزْهَرْتُـهُ ؟
أَهْدَى إِلى القَلْبِ . ؟ أَمْ أَشْذَاءُ أَطْـوَاق .. ؟
إِنِّي مِنَ الكَوْنِ طُرّاً قَدْ مَلأْتُ يَـدِي
وَمِنْكَ أَشْكُوكَ إِفْلاسِي وَإِمْلاقِـي
فَكُلَّ دَاهِيَـةٍ حَلَتْ . إِلى فَـرَجٍ
إِلاّ سُلُـوُّكَ وُدِّي دَائِـمٌ بَـاقِ
فِي دَرْبِ بِنْـزَرْتَ يُغْـرِي بِاللِّقَـا أَمَـلٌ
كَوَرْدَةٍ فِي غُـلالاتٍ وَأَطْـوَاقِ
كَـوَرْدَةٍ خَفِيَـتْ غَـارَتْ مَفَـاتِنُهَـا
لَوْلا العَبِيـرُ . وَهَـلْ تُورَى بِـأَوْرَاقِ
حَتَّى يَخَالَ الذِي تُغْرِيهِ نَفْحَتُهَـا
إِنَّ الشَّذَى عَبِقٌ .. فِي زَهْرِهَا البَـاقِي
بِنْـزَرْتُ أَهْدِيكِ مِنْ قَلْبِي مَحَبَّتَـهُ
وَضَّـاءَةً كَالضُّحَى فِي الدَّرْبِ مُهْـرَاقِ
هَيْمَـانَةً كَالهَـوَى لَمْ تُبْـلِ جِدَّتَهَـا
إِتْلافُ ذَاتِ يَدٍ ، أَوْ طُولُ إِنْفَـاقِ
بِنْـزَرْتُ يَا كَعْبَـةَ الأَحْـرَارِ مَا نَغَـمٌ
أَدْنَـى الى القَلْبِ مِنْ ذِكْـرَى وَأَشْـوَاقِ
ذِكْـرَى البُطُـولَةِ فِي حَـرْبٍ بِهَـا وَدَمٍ
نَمَّتْ بِـهِ دَمْعَـةُ العُنْقُـودِ لِلسَّـاقِي
لَمَّـا يَزَلْ فِي دُرُوبِ المَجْـدِ مِنْـهُ شَذَى
دَلَّتْ بِـهِ رِيحُـهُ عَنْ طِيبِ أَعْـرَاقِ

عبد المجيد بن جدو

من مفاهيمنا للثورة

بقلم : الدكتور عبد المجيد رزق الله

منذ ان اختارت عدة أنظمة سياسية السبيل الاشتراكية فى البلدان الحديثة العهد بالاستقلال للنهوض بهاته البلدان كثر ترديد عبارة «الثورة» فى التصريحات والكتابات ، حتى ركب البعض ممن يرددون هذه العبارة نوع من الكبرياء وركب البعض الاخر نوع من النقص فأخذوا يتسابقون الى التظاهر بالمزيد من « الثورية » ٠ وقد وقع الحديث بمناسبة احدى التجمعات الافريقيّة التى لم تعمر طويلا عن « افريقيا الثورية » بالمقارنة مع « افريقيا الهادئة » Moderée كما صنف بعضهم بلدان العالم العربى الى « بلدان متحررة » وأخرى غير متحررة ، وذهب حتى الى اعطائها أرقاما قياسية ٠٠٠ أما نحن فى تونس فاننا لم تاخذنا هاته النوبة والحمد لله بل واصلنا وما زلنا نواصل طريقنا بكل هدوء ورصانة فى ثورتنا الاصيلة العميقة الجذور البعيدة الاهداف رائدنا فى ذلك الاعمال لا الاقوال معتقدين أن الحكم على أية سياسة انما يكون بالنتائج ٠

فما هى مفاهيمنا للثورة ؟ وما هو محتوى ثورتنا ؟ وما هى الخطوات التى قطعناها فى هذه السبيل والتى بقى علينا قطعها ؟ هذا ما سنحاول الاجابة عنه مع الاعتقاد ان الجواب سوف لا يكون مستقصيا لما للموضوع من جوانب متعددة متصلة بجميع نواحى الحياة الدائبة ٠

* *

هناك حقيقة أصلية أولى يجدر ابرازها بادى ذى بدء وهى أن ثورتنا ليست وليدة الاستقلال اذ هى اجتاحت جميع نواحى الحياة واخذت تاتى على مخلفات الاستعمار وعهود الانحطاط الذى سبقه، بل ترجع بذورها وأصولها الى30 سنة خلت عندما انتظمت الجماهير الشعبية فى الحزب الحر الدستورى ودب فيها وعى جديد هز أركان الاستعمار وقلص ظله من البلاد وفتح الابواب أمام حياة الكرامة والعزة والازدهار ٠

وهناك حقيقة أصلية ثانية من الحق الاعتراف بها وهى أن باعث ثورتنا والساهر على سيرها هو قائد الحزب المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة الذى خلق ذلك الوعى وغذى ، ولا يزال ، الحماس الشعبى باتصاله المباشر وبتوضيحه المطرد للطريق ٠

وهناك حقيقة أصلية ثالثة وأخيرة ــ وليست آخرة ــ وهى أن ذلك الرجل

قد اصبغ على ثورتنا طابعه الخاص ، وهو الطابع البورقيبي الذى دخل التاريخ والذى يكون مزيجا من التمسك بالاهداف والمبادىء ومن اللين فى الطريقة ومراعاة الواقع ·

والآن ما هو معنى الثورة فى مفهومها العام ؟

ليس فى ما قرأت وطالعت أبلغ وأقوى من هذا التعريف للشاعر الفرنسى (فيكتور هوقو) لعبارة الثورة اذ قال : « الثورة هى فورة غيظ الحقيقة ··· والمعنى الثورى معنى أخلاقى ··· ذلك أن الاحساس بالحق يولد الاحساس بالواجب ··· وليس ثمة ثورة الا الى الامام ··· وكل حركة الى الوراء هى شر » · ان هذه الجمل على اقتضابها تحتوى على كافة معانى الثورة والقيم التى تنبع منها · وأولى هذه القيم هى الحقيقة ، والحقيقة المقصودة فى هذا الشأن هى تلك التى تتعلق بالانسان وهى التى تأبى أن يكون شعبا ما مطية للاستعمار والاستعباد والاستثمار من طرف شعب آخر وأن يكون انسان ما عبدا لانسان آخر ، وثانيها هو أداء الواجب عند الاحسان بالحق ، وثالثها هو التقدم المطرد للانسان والمجتمع على حد السواء ·

فالثورة حينئذ هى قلب للاوضاع · على أنه ليس كل قلب للاوضاع ثورة · فالانتفاضات والفتن مثلا ليست من الثورة فى شىء · ولا يكون قلب الاوضاع ثورة الا اذا اقترن بمثل شريفة وأغراض شريفة · وكل ثورة مع وجوب تبنيها من طرف قائد بمفرده أو بمعية قلة من مناصريه ، لا تكون لها فاعلية ولا يكتب لها النجاح الا اذا تفاعلت مع الجماهير الشعبية ووعت الامها واستوحت أهدافها من أمانيها · ولا يشترط فى الثورة أن تكون دموية مبنية على قوة الحديد والنار ولو أنه فى بعض الاحيان قد تضطر الى ذلك فى بداية انطلاقها ، اذا عاكستها قوة مادية تحاول عرقلة سيرها ، بل الاصل فى كل ثورة حقيقية أن تكون نابعة من القلوب ومن النفوس ومن العقول بغية تحقيق حياة أفضل تتوفر فيها الكرامة والازدهار ·

• • •

وبعد ذلك هل بقى من شك فى اصالة ثورتنا ؟ انها ثورة شاملة أتت على الاستعمار والقهر والاستغلال ثم أخذت تقلب الاوضاع وتأتى على مخلفات هذا الاستعمار الذى دام ثلاثة أرباع قرن واورث ما أورث من تخلف اقتصادى وتدهور اجتماعى · واكثر من ذلك كله انها ثورة عميقة بدأت فى تغيير مقاييس الحياة ونظرة الفرد الى المجتمع وغرس الفكرة الاشتراكية ــ بل العقيدة الاشتراكية ــ التى بدونها ليس للحياة الكريمة معنى وليس للتقدم مجال ·

بدأت الثور التونسية ، كما ذكرنا ، على يد المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة عندما اكتشف الداء الذى جعل الشعب التونسى ضحية للاستعمار بما أظهره

من استسلام للظلم وبما ركبه من يأس كاد يذهب به الى الفرنسة · فكانت « فورة غيظ الحقيقة » · وتولد عن احساس المجاهد الاكبر بالحق احساس بالواجب · وثارت ثائرته ففضح الباطل واعلن الحق ونشر الوعي وبعث الامل في النفوس · فتجاوب معه الشعب الذي وجد فيه الطبيب المداوي والتف من حوله وانتظم في الحزب ودخل النضال ··· وبعد ربع قرن من الكفاح السياسي أحيانا والدموي أحيانا أخرى كلل هذا الكفاح بالنصر وتوج بالسيادة والاستقلال ·

واستمرت الثورة اذ لم يكن الاستقلال غاية في حد ذاته بل وسيلة لقلب الاوضاع الفاسدة تلك الاوضاع التي لم تكن نتيجة لعقود من الاستعمار فحسب ، بل لقرون من الانحطاط أيضا ، ذلك الانحطاط الذي نخر عظام الامة وجمد عقولها وجعلها طعم الاحتلال وحال دون العدالة الحقة وأسباب الحضارة والتطور ·

وفعلا قد ورثنا عن عهد الاستعمار والانحطاط أوضاعا تتصف بالاختلال الذي شمل جميع مظاهر الحياة وجميع ميادين النشاط · فهناك اختلال بين عدد السكان والثروة ، واختلال بين مختلف القطاعات واختلال بين جهات الجمهورية ، واختلال بين امكانيات الثورة وما تهيأ لها من أسباب استثمارها كحسن التدبير والاطارات الضرورية · وأمام هذا الوضع الخطير والمهدد لمستقبل البلاد ولحرية الفرد ، تحتم علينا العمل ووجب علينا اصلاح ما أفسده الدهر ، فبدنا بالوعي والاقتناع لانه لا حرية حقيقية ما دامت نسبة المحرومين تبلغ ثلثي المجتمع · واعتبرنا هذا الوضع مدعاة للثورة ، لا على الذين يملكون الثروات الطائلة بل على الاسباب التي جعلت الشعب التونسي يصل الى هذه الحال · فضبطنا أهدافا معينة كرد فعل على هذه الاوضاع الموروثة الفاسدة واخترنا طريقة التخطيط الاقتصادي لمجابهتها · ولم يكن تخطيطنا اقتصاديا بحتا يهدف الى توفير الانتاج بصفة مجردة بل اجتماعيا أيضا يرمي الى العدالة وتدعيم الحرية الحقيقية الفردية والجماعية

ومن هنا جاء اختيارنا للاشتراكية كمهذهب لنا في الحياة · الا ان اشتراكيتنا تمتاز عن غيرها من الاشتراكيات الاخرى بأنها لم تفرض بقوة الحديد والنار ، ولم تدع الى الحرب بين الطبقات ، ولم ترم الى سيطرة الدولة على جميع القطاعات الاقتصادية ، بل انها ترتكز أساسيا على نظرة جديدة الى الحياة والمجتمع ونظرة الانسان الى نفسه باعتباره مواطنا متضامنا مع غيره · كما انها ترتكز على الايمان بالعلم والتخلص المتدرج والسريع من جميع المعتقدات البالية التي تحول دون التقدم الذي هو الغاية الاساسية لحياة البشر ·

هذه بايجاز ثورتنا المتواصلة الحلقات العميقة الجذور والبعيدة الاهداف ٠ فمن مقاومة الاستعمار فى الماضى الى تغيير الاوضاع فى الحاضر والى التقدم المطرد فى المستقبل ٠ وقد توخت وتتوخى دائما الطريقة البورقيبية لبلوغ أهدافها تلك الطريقة التى سمتها الجرأة والرصانة فى آن واحد ، وميزتها النظر البعيد والواقعية على حد السواء ٠ ونحن لم نتجاهل المرحلة الحالية التى قال عنها المجاهد الاكبر الحبيب بورقيبة انها « أصعب ما سابقتها لان سبلها أقل وضوحا ولانها تتطلب تغييرا فى طرق التفكير وفى النظر الى الامور » وهذا ما يعبر عنه بالجهاد الاكبر أى جهاد النفس ومغالبتها ٠ ولكننا مع هذا واثقون من اننا « وفرنا بطريقتنا الدستورية المرنة الحازمة فى الوقت نفسه اسباب الانتصار الاقتصادى والاجتماعى الذى سيخلصنا من التخلف كما تخلصنا سابقا من الذل والاستعباد » ٠

وما علينا الا مواصلة السير وسيكون النصر دوما حليفنا لانه :

اذا الشعب يوما أراد الحياة فلابد أن يستجيب القدر

عبد المجيد رزق الله

من وحي بنزرت

شعر : محمد مزهود القيرواني

تبـارك أشعـاري الذي شيد الصّرحا ... وعن صانع الامجاد تروي الذي صحّا
شدّت فأشادت لا تريم فأبلغــت ... وأوحى لها الالهامُ بعضَ الذي أوحى
وهل كان شعري غير ايماض خاطر ... يرفّ كما رفّت دراري السما جنحا
يُرى كل بيت منه ثاني عطفـه ... كما ثنت الخضراءُ أعطافَها المرحى
سموت به عن غير ما شرف الحمى ... وأوريت فيه من زناد الحجى قدحا
وأُشرِبَ قلبي حبّ صوْغ عقوده ... لأُودِعَ فيه سرّ ما تعرف الفصحى
وما كان بالمذكور لو لم يُهب به ... حبيب بلادي أن يزُفّ له المدحا
فقَدْ ذَرّ في الخضراء نجمَ سعودها ... وأطلع في آفاق (بنزرتها) صبحـا
وألبسها عـزّا وأورث سـؤددا ... وأضفى عليها من جلالته وُشْحـا
فصارت بها الايام ضاحكة السنـا ... ومن قبل كانت عابسات بها كُلْحا
فكم دنس العادون أحرامَ ساحهـا ... وكم رزَحَتْ من تحت أعبائهم رزحا
وكم أزهقوا فيها النفوس بريئة ... وكم قذفوا رعبا وكم أثخنوا جرحا
أطاح بهم فاندكّ معقل بغيهم ... وطهر من أرجاس طاغيهمُ البطحا
وحقّقه حلما وأقسم أن تُرى ... على هامة الافلاك أمجادُها تُدْحَى
وافلح شعب قد أهاب به ضحى ... ونادى: ألا من يُوقَ في الأنفس الشّحا
فخاض غمار النقْع واقتحم الردى ... ولم يك يخشى الهول يسطو ولا اللفحا
وما صده (النابالم) الفظ في الوغى ... ولا ردّه عنه اللهيبُ الذي فحّا
كذا قاده للنصر (داووده) الـذي ... على رشد الابْرار يَمْحَضه النُّصحا
وهل كان إلا في الاعاصير سابحا ... فأنهى على شط السلام به السبحا
ورفرفت الرّايات حُمْرا وردّدت ... حناجرُنا: مرحى لرافعها مرحى
وقد أشرفت من عالم الخلد والرضى ... على موكب العلياء أرواحُ من ضحى
لقد قُضِيَ الامر العظيمُ وما سوى ... هزبر رباط الفتح حققه فتحا
تلفتت الدّنيا إليه ولم تـزل ... محدثة عنه مفيضة الشرحا

⁂

أيا يومَ إقلاع الجواري عشيّة ... لتأخذ في غمق البحار لها منحى

تُقِلّ بقايا الإفك فوق متونها ... قلوبُهُمُو حَسْرَى وأعينهم قرحى
وتغرب كالشمس التي ودعت بهم ... عهودا بها ذقنا الشدائد والبَرْحَا
تشيعُهُمْ منا أهازيجُ فرحة ... وتَبهرُهم منا خلائقُنا سُمحا
لقد أرجع الضرغامُ عرّيسَ تونس ... ليأوي إليه مستظلا به الدوحا
ويطوي عن الماضي الدّجُوجيّ صفحة ... ويضربَ عمن أمعنوا في الاذى صفحَا
ويستقبلَ العهدَ الاغرَّ صباحُه ... ويملأ من فيضَ الامان لنا القدحَا

∴

سَلامٌ على يوم خططنا بسفره ... صحائفَ من تاريخنا لم تكن تُمحى
صحائفُ أمجاد ستبقى خوالدا ... نَوَاصِعَ منهن البطولات تُستوحَى
سلام على يوم تبلج صبحه ... وقد شرحتْ كل الصدور به شرحَا
أطلتْ على الخضراء شمسُ نهاره ... كأنّ بها من فيض نشوتها مَرْحَا
أطلتْ على الاكوان إطلالة الرضى ... وفي الفلك الدّوّار قد سبحتْ سبحا
لتغزل من أنوارها نسْجَ بُردة ... موشعة الاطراف تحسبها لوْحَا
تزيدُ بها عيد الجلاء مباهجا ... وتغمرُ بالافراح أيّامهُ الفرحى

∴

أبنزرت تيهي واشمخي اليومَ عزة ... وجُرّي ذيول الفخر واستقبلي الصبحا
وكوني على الآباد شعلة نَهضَة ... تعمّ من الخضراء آفاقَها الفُسْحَا
فما عُدْتِ رمزا للدّمار كما ادعوْا ... فللسعد آلتْ بَعْدُ أرْبُعُكِ الفيْحا
ولنْ تُستباحِي بعد إيقاظ أمّة ... قضى جهلها من قبلُ أنتكسحي كسحا
أبنزرتُ هذا العيدُ تاجُ مفاخر ... لايّامنا اللاتي بَنَيْنَا بها الصّرحا
يَزين كرامُ الوافدين جلالَه ... بمن كان فيهم من بني يعرُب قُحّا
وقد لاح للأنظار حامي الحمى كما ... تَلوحُ بدورُ التّم في لُوحها جُنْحا
تُحيط به من عزّة النصر هالة ... تُشعّ على هذي المضارب والانحَا
ألا إنّ هذا من بنى المجدَ شامخا ... وأطلق من قيد ونلنا به النُجْحَا
وخلد بي الدنيا مبادىءَ لم تزل ... لمن يقْتَفِي منها طرائقها تُنْحى
مَبادىءُ ما ضلتْ مناهجُها الهدى ... كأنّ هيَ مما كان ربّ السما اوحى
بها أدرك المأمولَ شعبٌ ولم يزلْ ... يَزيد بها التّجْرُ المؤمّلُه ربْحَا

محمد مزهود القيرواني

خواطر

في « التربية ونزعات الشباب »

بقلم : الحبيب الشاوش

كثيرا ما يكون للالفاظ ، حالما تقرع آذاننا ، أثر صوتي تتولد عنه مجموعة من الخواطر او سلسلة من المعاني تتبادر الى الذهن ، وانما ذلك بمفعول العادة والتواتر في الاستعمال .

ولعلم اللغات (Linguistique) باع طويل في التعريف بهذا الباب فلفظة « الشباب » او « الشبان » يثير سمعها ما يدل على اللهو والنزوع الى العاطفة وتياراتها قبل الاخلاد الى التفكير الرصين والتروي العميق فيما يصدر عن النفس من اعمال وتصرفات .

وكما ان لفظة « مطر » تذكرك بالسحب المتلبدة في السماء او الماء يجري على الارض يسقيها ، ولفظة « صيف » بحرارة المناخ والسباحة في البحر ، فلفظة « الشباب » قد تدل عندك من اول وهلة على مفهوم الحركة والطيش او القلب يسيطر في دفعاته على العقل ... وهذا ابن المقفع في باب عرض « كليلة ودمنة » يتحدث عن اغراض الكتاب فيقول : « وينبغي للناظر في هذا الكتاب ان يعلم انه ينقسم الى اربعة اغراض : احدها ما قصد فيه الى وضعه على السنة البهائم غير الناطقة ، من مسارعة اهل الهزل من الشبان الى قراءته ، فتستمال به قلوبهم لان هذا هو الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات ...»

على ان الشبان اصناف ونزعاتهم متباينة ولا ينبغي ان نجمع بين هذه اللفظة وكلمة الهزل والحديث عن القلب دون العقل كما جاء القول في هذا الشان على لسان ابن المقفع .

ذلك ان من الشبان : الطائش الغرير ومنهم الرصين الثابت ، والنشيط المتحرك والخامل الساكن ، والضحاك الطروب والعابس النفور ، والذكي الحصيف والغبي المتبلد ، والمثقف والجاهل ومنهم من نراه ينزع الى الخير والعمل الصالح ومنهم

من يميل الى الفساد والافساد والشر، اوالى اللهودون الجد .
وهذا الى السكينة والوقار مخلد وآخر عنه عادل .
وانما القصد من هذه النزعات اغلبها على النفس واشدها سيطرةدون سواها
ولوحاولنا التفهم بالنظر في منشأ هذه الميول عند الشبان ونموها واتجاهاتها لأحصينا من المؤاثرات الداخلية او الباطنة من جهة والخارجية من جهة اخرى عوامل مختلفة في تكييفها: منها ما هوراجع الى الوراثة أو البيئة العائلية او الاجتماعية التي فيها يدرج المرء طفلا ويترعرع فيصبح شابا يافعا . ولعلم النفس ودراسة الامزجة البشرية وعلم الحياة والطب ضلع كبير في استجلاء الاسرار واستبطان الغوامض واستطلاع الدقائق العليقة بهذا الباب ...
ولئن كان الشاب يتأثر في حياته بما يجرى في عروقه من دم ابويه فهو من ناحية اخرى يتلقى من محيطه العائلي الضيق او بيئته الاجتماعية الواسعة ما من شأنه ان يترك في نفسه بالغ الاثرويولد له فيها حاجات لامناص له منها ولا سبيل الى الحياد عنها .
ومن هنا يكون التفاعل بين الشاب والمجتمع الذي ينشأ فيه ويكبر . وبقدرما يكون الفرد سليما في جسده وعقله بقدرما يصلح المجتمع بصلاحه وينمو بنموه . فالرياضة البدنية والرياضة الفكرية من الحاجات الناشئة في المجتمعات وهي مكملة لحاجات الانسان الفطرية الطبيعية كالغذاء والنوم. وكذلك الفضول وحب الاطلاع والتجول وحب الانخراط في النوادي والجمعيات من الحاجات المتولدة عن الحضارة الانسانية خلافا لما كانت عليه اساليب العيش البدائي . ومن هنا نستخلص ما يمكن تحقيقه في ميدان التربية والتوجيه والتنمية لنزعات الشباب باحدث الوسائل التربوية والنفسانية .
والشباب عبارة عن مادة غضة خام تتكيف مع السنين وتسير في المسلك الذي يتهيأ لها بالتوعية والتعليم والتربية .
وفي يومنا هذا تعلق البلاد الناهضة اهمية كبيرة على وجوب الاعتناء بالشبان والسهر على تربيتهم تربية صحيحة سليمة على قاعدة اخلاقية متينة ناجعة ، باعتبار المؤثرات الخارجية المتمثلة خاصة في عوامل البيئة الاجتماعية وما تتيحه من وسائل التلهي والتعلم والتثقف وبث الوعي في النفوس بالنسبة الى الشبان .
ولأنت قادر ان تعرف ابنك الشاب وتكيف شخصيته وتجعل منه ما تريد بشرط الاعتماد على ما يساير طبعه ولا يثير نفسه بل يستهويها بما يرجع عليها بالفائدة والرفاه والترفيه واحسن سبيل الى ذلك ما كان فيه الجد بجانب الهزل والعمل بجانب اللهو حتى يحصل التوازن الذى هوعنوان الكمال والشعور بالسعادة.

الحبيب الشاوش

الاســــود الاحمــــر

– الى ع –

شعر : جعفر مـاجد

الاسْوَدُ الاحْمَـــرُ　　أغْنيَـــةٌ تَعْبُـــرُ
أنْغامُهَـا مَوْجَـــةٌ　　تَغْمُرُني تَغْمُـــرُ
سَكِرْتُ حينَ مَشَتْ　　وَلَمْ أزَلْ أسْكَـــرُ

∴

بِثَغْرِهَا بَسْمَـــةٌ　　مُشْرَبَةٌ تُحْجِـــمُ
انْ عَبَرَتْ فَمَهَـــا　　فُرِّطَتِ الانْجُـــمُ
كَأنَّهَا قُبْلَـــــةٌ　　فِي شفَقٍ تُرْسَـــمُ
اوْ نَغْمَةٌ حَوَّمَـــتْ　　وَاحْتَارَ فِيهَا الفَـــمُ
فَلَيْتَهَا تَظْهَرُ

∴

وَشَعْرُهَا أصْفَـــرُ　　وَخَيْطُهُ أخْضَـــرُ
خَمْرَتُهَا خَمْـــرَةٌ　　مَا شَمَّهَا مَعْشَـــرُ
الإثْمُ كَرْمَتُهَـــا　　وَالجَمْرُ وَالعَنْبَـــرُ
الثَّغْرُ يَمْزُجُهَـــا　　والجَفْنُ يَسْتَغْفِـــرُ
فَلَيْتَنِي أكفُرُ

∴

يَا حُسْنَهَا مِشْيَـــةً　　كَالخَدَرِ الزِّنْبَقِـــي
أحْسِبُنِي عَبْـــرَهَا　　ضِعْتُ عَلَى زَوْرَقِ
فِي شَفَقٍ أسْـــوَدِ　　فِي غَسَـــقٍ أزْرَقِ
أهْمِسُ : هَل نَلتقِي؟　　أهمِسُ: هَلْ نَلتقِي؟

أهْمِسُ :
لا أذْكُـــرُ...

الأسْـــوَدُ الأحْمَـــرُ　　أغْنِيَـــةٌ تَعْبُـــرُ
أنْغَامُهَا مَوْجَـــةٌ　　تَغْمُرُني تَغْمُـــرُ
سَكِرْتُ حِينَ مَشَتْ　　وَلَمْ أزَلْ أسْكَـــرُ

قصتان سحريتان

لفريدريك براون FREDRIC BROWN

تعريب : محسن بنحميدة

- 1 -

كـل شيء قيـد شعـرة [2]

لقد رجعت زوجة ديكار (Decker) من جزيرة هايتى التى ذهبت اليها وحدها اذ عزم الزوجان على أن ينفرد كل منهما زمنا للتفكير فى الطلاق لكن ذلك لم يسو أى شيء بينهما فلقد ازداد كرههما على ذى قبل .

قالت السيدة ديكار لزوجها فى عزم وثبات :

ـ انى أطالب بالقسمة العادلة أنى أريد نصف مالك ونصف أملاكك .

فقال السيد ديكار فى شراسة :

ـ ان طلبك لمضحك .

قـالت :

ـ آه طلبى مضحك ؟ .. لو أردت لاخذت مالك كله وأملاكك جميعها فلقد تعلمت يا رفيقى الفودو (Le Vaudou)

فقـال :

ـ اذن ؟

قالت :

ـ اذن لو لم أكن امرأة فاضلة لقضيت عليك بسكتة قلبيـة فان الفـودو لا يترك أى أثر .

قال فى ترفع :

ـ انها مهزلة

قالت :

ـ ان كان الامر كما تقول فدعنى أجرب .. اعطنى شعرة أو قلامة ظفـر وسترى .

قال السيد ديكار الطيب :

ـ انها لخرافات .

قالت :

ـ انى أعرض عليك أمرا ... لنجرب فان تخفق التجربة يقع بيننا الطلاق ولا أطالبك بشيء وان تنجح أرث كل شيء ووداعا وشكرا .

قال السيد ديكار البارع :

ـ اذهبى وايتينى بشمع وابرة .

ونظر الى أظافره فقال :

ـ انها قصيرة جدا فسأعطيك شعرة .

ودخل الحمام فرجع بشعرة فى علبة «اسبرين» وكانت السيدة ديكار قـد ألانت الشمع فغمست فيه الشعرة وصنعت منه شكلا انسانيا غير محكم ثم غمست الابرة فى صدر التمثال الصغير قائلة فى حدة :

ـ انك ستندم .

وتعجب السيد ديكار تعجبا لذيذا مريحا ...

انه لم يكن يؤمن بالفودو لكنه كان بصيرا ثم انه كان يزعجه من زوجتـه انها لم تكن تعتنى قط بتنظيف مشطها .

- 2 -

انتبـــه مـــن الصـــورة (3)

نظر هانرى ساعته وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل فاغلق الكتاب فى يأس ٠

ان خيبته غدا لمتحققة فبقدر مـا كان يعيـد درس الهندســة بقدر ما كان يسىء فهمها وقد خاب مرتين فلسوف يرفضونه من الجامعة ولا يكون الخلاص الا بمعجزة ٠

وانتفض قائما مفكرا ٠ ولم لا ؟ وقد اهتم دائما بالسحر وله فيه كتب وجد فيها طرائق يسيرة جدا لاستحضار الجن وتسخيرهم لارادته ٠

انه لم يجرب ذلك قط لكن الساعة قد حانت لذلك ٠

فأخذ من على رفوفه أحسن تاليف فى سحر الزنوج ٠

ان الامر لهين ٠٠٠ تقول بعض العبارات وتحتمى فى مخمس فيأتى الجنى فلا يجد حولا لايذائك فتطلب منه ما تشاء ٠٠ ان النجاح فى متناول اليد ٠

وأزاح هانرى أثاث الغرفة الى الجدران ليتسع له وسطها ثم صور على الارض بالكلس المخمس الحامى وقال الرقى ٠

لقد كان الجنى فظيع المنظر حقا لكن هانرى تجلد وجعل يملى ارادته قال :

ــ كنت دائما باطلا فى الهندسة

فقال الجنى متهانفا :

ــ لمن تقول ذلك ٠

واجتاز خطوط الصورة ليفترس هانرى

لقد صور هانرى الاحمق مسدسا بدل المخمس ٠

تعريب محسن بنحميدة

---

(1) نشرت هاتان الاقصوصتان فى مجلة « كوكب » Planète العدد 12 ــ سبتمبر اكتوبر 1963 الاولى بصفحة 107 والثانية بصفحة 109

(2) عنوانها ثنائى : Le Vaudou و Tout tient à un cheveu

(3) عنوانها ثنائى أيضا : Soyez bon en géométrie و Attention à la figure

محمد بن شرف القيرواني

مع الادباء وانتاجهم

بقلم : محمد الهادى العامرى

التعريف برجال العلم والثقافة الادبية فن رقيق ، وضرب دقيق يحتاج فيه الكاتب علاوة على الضلاعة العلمية ، والتبحر فى الثقافة الفنية ، والمهارة الادبية الى توخى الصدق وتحرى الحقيقة والواقع • وقد يعسر تأدية الحقائق بلسان الادب المنمق والتعبير المزخرف المسجع وطالما جمح الخيال بكبار الادباء الى الغلو والتغالى فكان من العسير أن يتفق للبليغ الموهوب الذى يحلق فى آفاق الخيال فى جموح واهتزاز ، وتأثر وشعور غامر أن يؤلف بين الخيال والواقع حتى قيل أعذب الشعر أكذبه وقيل : فى زخرف القول

فى زخرف القول تزيين لباطله والحق قد يعتريه سوء تعبير
تقول هذا مجاج النحل تمدحه وان ذممت تقل قىء الزنابير
مدحا وذما وما جاوزت وصفيهما حسن البيان يرى الظلماء كالنور

ومن تأمل حديث ابن بسام صاحب الذخيرة فى تعريفه بالوزير ابن زيدون الاندلسى المتوفى سنة 463 هـ علم صحة هذا القول وصدق هذا النظر اذ يقول ابن بسام عن أبى الوليد أحمد بن زيدون المخزومى الاندلسى ما نصه :

كان أبو الوليد غاية منثور ومنظوم وخاتمة شعراء بنى مخزوم أخذ من حر الايام حرا وفاق الانام طرا وصرف السلطان نفعا وضرا ووسع البيان نظما ونثرا الى أدب ليس للبحر تدفقه ولا للبدر تألقه • وشعر ليس للسحر بيانه ولا للنجوم الزهر •

ويمضى ابن بسام قدما محلقا فى آفاق خياله فى طلاوة تعبير وجمال صيغة واشراق ديباجة • ولكنه سامحه الله عندما يقول ان أبا الوليد بن زيدون « فاق الانام طرا » فيندفع مع الخيال الذى يجمح به الى ما لا يخطر لعاقل على بال ، وكيف يفوق الفرد الانام طرا مهما أوتى من عبقرية وضلاعة؟

أما الفتح بن خاقان الكاتب المعروف بقلائده ومطمحه ، فقد حكم قلمه فى الرجال بالهجو مرة والمديح أخرى جريا وراء غاية سخيفة يبتغيها وسفاسف ينحط اليها وكل من أرضته صلته أجاد فى تحليته • وكل من تغافل عنه

هجاه وثلبه فوقع فى الخلط والخبط فتارة يقول عن أبى بكر بن **باجة** المعروف بابن الصائغ وكان من كبار مفكرى الاندلس وبلغائها ورؤساء دواوينها : أبوبكر بن الصائغ هو **بدر** فهم ساطع وبرهان علم لكل حجة قاطع **تفوحت** بعطره الاعصار وتطيبت بذكره الامصار وقام به وزن المعارف واعتدل ومال، وتهدل وعطل بالبرهان التقليد ، ويكثر ويطيل فى وصف روعة انتاجه ثم **يكر** على هذا الكلام بالنقض فلا يستحى أن يقول : أبوبكر بن الصائغ اشتهر سخفا وجنونا وهجر مفروضا ومسنونا مع منشأ وخيم ولؤم أصل وخيم وصورة شوهها الله وقبحها وطلعة اذا أبصرها الكلب نبحها وقذارة **يوذى** البلاد نفسها ووضارة يحكى الحداد دنسها ٠

وله نظم أجاد فيه بعض الاجادة وشارف الاحسان أو كاده ٠

ولكننا عندما تأملنا فى سلسة من تراجم الادباء بقلم محمد بن شرف القيروانى لم نجد أثرا لهذا التقحم الشائن والمبالغة المزرية بل كان تعريفه للاديب وأدبه يتسم بسمة الاطلاع وروعة الاضطلاع **وينبىء** عن تحر بعيد المدى ويعرب عن ابداع فى التصوير والاحاطة فى القتدير والاصابة فى التحرير والتعبير وتقص فى الميدان الفسيح فى ايجاز بارع وملخص شامل ، وشعور غامر ٠ فكأنه مصور فنان يصور بريشة القلم كل منظر وكل مظهر ويدون كل ملمح فى اختصار مفيد ونزاهة وانصاف نادرين فى الرجال ٠

وماذا عسى الباحث فى أدب أبى الطيب المتنبى ، والدارس لحياته أن يقول مما قاله محمد بن شرف القيروانى ٠ فلقد لخص حياة المتنبى وشعره فى أسطر كانت كاللآلى الشعاعة المضيئة بانوارها المنبثقة عن ضلاعة وتبصر بل ان أسطرا قليلة أرخت أديبا كبيرا ذائع الصيت فى الفديم والحديث ٠ فكانت كلمة ابن شرف كالعنوان الصادق لما تحتها وها نحن نقدم لكم كلمته عن المتنبى التى جمعت ما تفرق وانتهت فى الحكم عليه الى ما انتهى اليه الادباء الكاتبون الذين أضاعوا أنفس الاوقات فى التعصب للمتنبى أو التعصب عليه ولم يقف ابن شرف عند ذلك الحد ٠ بل ادلى برأيه الشخصى فى المتنبى وأدبه فقال :

(وأما المتنبى فقد شغلت به الالسن وسهرت فى أشعاره الاعين وكثر الناسخ لشعره والآخذ لذكره والغائص فى بحره ، والمفتش فى قعره عن جمانه ودره وقد طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف وله شيعة تغلو فى مدحه وعليه خوارج تتغايا فى جرحه ٠ والذى أقول ان له حسنات وسيئات وحسناته أكثر عددا وأقوى مددا وغرائبه طائرة وأمثاله سائرة ، وعلمه فسيح وميزه صحيح يروم فيقدر ويدرى ما يورد ويصدر ٠ اهـ

ألا تراه لخص حياة المتنبى وأدبه فى بضعة أسطر مع الالمام بسائر النواحى فى بيان المتنبى وادبه ، بحيث لو بحثت حياة المتنبى لم تخرج بغير هذه النتيجة ٠ وما أبرع تعريفه لابى فراس الحمدانى وأدبه فقد جمع فى سطرين ما يحيى فيه الكتاب مجلدا ضخما :

فأبو فراس الحمداني كما يقدمه ابن شرف الذى قال عنه : وأما أبو فراس ابن حمدان ، ففارس هذا الميدان ان شئت ضربا وطعنا ، ولفظا ومعنى ، ملك زمانا وملك أوانا : أشعر النـاس فى المملكة وأشعرهـم فى ذل الملكة ولـه الفخريات التى لا تعارض والاسريات التى لا تناهض الخ ٠

هناك ميزة أخرى فى تعريف ابن شرف للادباء والكتاب لا يشاركه فيهـا الا القليل ٠ كأن لا يعـوزه التثبت فى الحكـم على الشاعر أو الكاتب ٠ وان بعدت داره وشط زمانه ذلك لانه درس أدبه ، وتتبع آثاره وانتاجه فى دقة وتحر وتعمق مما يبرهن على ثقافة أدبية بعيدة الغور عند أدبائنا الاقدميـن بهذه البلاد ، وطلاع غزير يتمكن معه الاديب من الحكم عـلى الغير وعلى آثاره فى اطمئنان يشعر فيه الكاتـب براحة الضمير فى أحكامه ٠

وماذا عسى أن يقول الكتاب والباحثون عن أحمد بن عبـد ربه الاندلسى المتوفى سنة 328 هـ بعد كلمة ابن شرف الذى يقول عنه : وأما ابن عبد ربه القرطبى وان بعدت عنا دياره ، فقـد صاقبتنا أشعـاره ووقفنـا على أشعـار صبوته الانيقة ومكفرات توبتـه الصدوقـة ومدائحـه المروانية ومطاعنـه فى العباسية وهو فى كل ذلك فارس ممارس ، وطاعن مداعس ٠ وأطلعنا شعره على علم واسع ومادة فهم مضىء ناصع ومن تلك الجواهر نظم عقده وتركـه لمن يحمل بعده ٠

فتحدث عن أحمد بن عبد ربه ، وانتاجه فى كلمة جامعة مدققة واستطاع فى أسطر قليلة أن يلم بسائر حياته ويدون رأيه فى انتاجه الادبى وأطواره ، ونواحيه ٠ وهكذا يواصل محمد بن شرف تعريفه لكبار الادباء وأدبهم على هذا المنوال فى تحد واحاطة ، وبلاغة ، فيتناول البعيد بمثل ما يتناول بـه القريب فينصف ٠

وهذا تعريفه بالشاعر التونسى (على الايادى) الذائـع الصيت فى القرن الرابع الهجرى ، أكبر شاهد على اعتدال احكامه ، وميزة تفكيره اذ يقول عنه:

وأما على التونسى : فشعره المورد العذب ، ولفظه اللـؤلؤ الرطب ، وهـو بحترى الغرب ٠ يصف الحمام ، فيروق الانام ، ويشبب ، فيعشق ويحبب ، ويمدح ، فيمنح أكثر مما يمنح ٠

ولم يتمالك ابن بسام عن الشهادة لابن شرف بالاعتدال عندما استعرض تعريفه بأبى تمام الذى يقول عنه ابن شرف : وأما الطائى حبيب : فمتكلف الا انه يصيب ، ومتعب لكـن له مـن الراحـة نصيب ٠ وشغلـه المطابقـة والتجنيس ، جيد ذلك أو بيس ، جزل المعانى ، مرصوص المبـانى ، مدحـه ورثاؤه لا غزله وهجاؤه ، طرفا نقيض ، وخطتا سماء وحضيض ٠ وفى شعره علم جم من النسب ، وجملة وافرة من أيـام العرب ٠ وطـارت له أمثـال ، وحفظت له أقوال ، وديوانه مقرو ، وشعره متلو ٠

قال ابن بسام : أما صفته هذه لابى تمام ، فضفة لم يثن عطفها حمية ، ولا تعلقت بذيلها عصبية ، حتى لو سمعها حبيب لاتخذها قبلة ، واعتمدها ملة • فما آلم من أدب وان أوجع ، ولا سب من صدق وان أقذع • اه

وتعليق ابن بسام على هذا التعريف بمثل هذه الروح يبين المدى الذى اشتهر به ابن شرف فى ذلك الزمن بين أوساط الادباء النقادين من الاندلسيين • ولنختم هذه الكلمة برأى ابن شرف فى البحترى وابن المعتز وابن الرومى وهم من أعلام الشعراء وكبار الادباء فى القديم فيقول :

قال محمد ابن شرف : وأما البحترى : فلفظه ماء ثجاج ، ودر رجراج ، ومعناه سراج وهاج ، على أهدى منهاج • يسبقه شعره ، الى ما يجيش به صدره ، يسر مراد ولين قياد • ان شربته أرواك ، وان قدحته أوراك • طبع لا تكلف يعييه ، ولا العناد يثنيه ، لا يمل كثيره ، ولا يستكف غزيره ، لم يهف أيام الحلم ، ولم يصف زمن الهرم • وأما ابن المعتز فملك النظام ، كما هو ملك الانام ، له التشبيهات المثلية ، والاستعارات الشكلية ، والاشارات السحرية ، والعبارات الجهرية ، والتصاريف الصنوفية ، والطرائق الفنونية، والافتخارات الملوكية ، والهمات العلوية ، والغزل الرائق ، والعتاب الشائق، ووصف الحسن الفائق •

وخير الشعر أكرمه رجالا   وشر الشعر ما قال العبيد

وأما ابن الرومى : فشجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع • وله فى الهجاء ، ما ليس له فى الاطراء ، فتح فيه أبوابا ، ووصل فيه أسبابا ، وخلع منه أثوابا ، وطوق فيه رقابا ، تبقى أعمارا وأحقابا ، يطول عليها حسابه ويمحق بها ثوابه • ولقد كان واسع العطن ، لطيف الفطن ، الا أن الغالب عليه ضعف المريرة وقوة المرة •

محمد الهادى العامرى

دادة فـاطـمـة

قصة بقلم : محمد رشاد الحمزاوي

ادت دادة فاطمة صلاة العصر وتربعت على سجادتها ثم تناولت سبحتها لتذكر اسماء الله الحسنى عشرين مائة مرة. فهي تدعو الله كل يوم وتبتهل له كي يسدد خطى ذويها واخوانها في الدين ويدخلها جنة الخلد ويهلك الكفرة الفجرة... امين.

اطرقت رأسها خاشعة وتمتمت يالطيف ويالطيف، يارحيم ويارحيم... يالطيف... ثم تركت ابهامها يدفع حبات سبحتها فتمر هينة على سبابتها وتقع متراحمة في كفها العريض اليابس. نظرت بعد حين الى بيتها فوجدته بسيطا نظيفا قد نظم فقره تنظيما. فلقد برزت في جنوبه صورة البراق تقابل السدة حيث رتب حصير و كليم وبطانية ملونة قديمة ونظمت تحتها قدر طينية ومثرد خشبي ومزود وصندوق مراكشي اسود ذو مسامير صفراء كبيرة. اما القسم الشمالي فلقد استقامت فيه خزانة خشبية رشقت في زاوية مرآتها العمياء صورة شمسية قد اصفرت جوانبها وانحنى جزءها الاعلى حتى كاد يخفي محتواها.

أنعمت دادة فاطمة النظر في محيطها فشعرت لاول مرة بضيق في بيتها. شيء غريب جديد. نظرت ثانية لتدرك ذلك فتيقنت ان وحدتها حقيقية وان بيتها كاد يصبح سجنا. فتعوذت من الشيطان وقامت ثم قصدت فناء منزلها فاستنشقت الهواء بملء رئتيها وداعبت عيناها الجدران وطاقاتها و« النوالة » وبيت « العولة ». عادت الى بيتها وهي تذكر اسماء الله الحسنى ثم توجهت الى الصورة فسوتها ونظرت اليها فتجعدت ناصيتها وارتفع حاجباها. تعلقت بشخصيها. فكان احدهما شيخا معمما عملاقا قد ارتدى صدرية سوداء وسراويل جزائرية فضفاضة يكاد مؤخره يدرك الارض. فلقد تقاعس وظهر على وجهه الجد والإعتناء وطغى التهندم على هيئته. ذلك زوجها السيد الحاج محمد امام عدسة المصور. انه يلهم الضحك لانه قد بالغ في تجميل نفسه وعرضها حتى خلت صورته من كل طريف طبيعي. فطغت سذاجته على تواضع ابنه مسعود الذي وقف بجانبه معتدلا منحني الرأس. فبدا لامه انه من اهل الوزر

الذين خلقوا ليحملوا عبء عصرهم. انه ابن امه. فعيونهما زرقاء وناصيتاهما عريضتان مجعدتان وانفاهما يشابهان منقار العقاب وذقناهما حادان قويان. فهو لا يختلف عنها في شيء سوى ان بشرة وجهها قد ذبلت وكثرت تجعداتها فجرت في الحنكين وحاصرت الانف وتكاثرت في الذقن والعنق. لكنها لا تزال تحتفظ بما تميز به من صبر عنيد ومن عزم هادىء.

تنهدت دادة فاطمة وتركت الصورة وعادت الى سجادتها لكنها ترددت ثم خرجت مسرعة وتوجهت الى فرجة لتطل على القرية. كانت تلهث وتتحذر خشية عيون مخفية ترمقها لأنها تقترف ذلك الذنب الأول مرة في حياتها. وقفت وكادت تعود الى بيتها لكنها هرولت نحو الفرجة واستكشفت القرية. يا غلبتي ! لقد رات امرأة تسرع، سافرة، نحو منزلها. كانت حافية القدمين قد ارتدت « ملية » تونسية وحملت في يدها اليمنى سلة كبيرة. اخذت تهرول بغتة وتنظر وراءها وفجأة عاجت الى اليسار ودخلت كوخا مهدما. خرجت منه سريعة واخذت تنادي

ــ دقازة بالسبحة... أنا دقازة بالسبحة... هذي دقازة بالسبحة...

وازداد صياحها ثم وقفت ومدت يديها نحو شخص لم تره دادة فاطمة. ظلت الغريبة في مكانها وجسمها يميل ويتمايل يانعا مغريا حتى أطلت عليها فرقة عسكرية. فتقدم نحوها الضابط فخاطبها ثم ادمج يديه في صدرها وجس خصرها وظهرها ورفع « مليتها » عن فخذيها وفتش قفتها. تركها لكن جنديا آخر ارتمى عليها وفك حزامها دون ان تبدي حركة وكاد ينزع « مليتها » غير ان الضابط ناداه ضاحكا وامره بتركها. كادت دادة فاطمة تختنق فارادت ان تصيح لكنها خشيت ان تصبح عاهرة مثل تلك المرأة. فلو ظلت في منزلها مستورة مثل كل مسلمة لما نالها مكروه. رجعت دادة فاطمة الى بيتها واسرعت في ذكر اسماء الله الحسنى لكن صورة تلك الفتاة الجميلة ظلت تتابعها وتزعج ذكرها. ارادت ان تتناساها فنظرت الى محيطها والى السماء التي احمرت أفقها معلنة عن غروب الشمس. لكن دون جدوى. قامت وعادت الى الفرجة فلم تر غريبتها، فتلوعت عليها. وما كادت تتنهد حتى رأتها تخرج من الكوخ وتتوجه نحو منزلها عازمة هادئة حتى بلغت الباب. ترددت قليلا واصلحت هندامها ثم صاحت

ــ دقـازة بالسبحـة... دقـازة بالسبحـة تأتيك باخبـار الاحبـاب في الغربـة وتفتـح في وجهـك بـاب الفرج بعد الشـدة...

سكتت ونظرت حولهـا ثم دفعت البـاب بشـدّة فوجدت دادة فاطمة واقفـة وراءه غـاضبة مهاجمـة

ــ أه يا فاجرة... ياكافـرة. في هذي الدار مـا ثمة عندنـا عـــار

ــ سامحيني يادادة... فـاطمـة...

ــ هـه ! ومـا عرفـك باسمي ؟

ــ أنا دقـازة يادادة. لا تصعب علي معرفة الغيب وهمـوم الناس وفرحتهم.

ــ هـذا علم جديـد. لا يعلم الغيب الا الله. اذهبي يافريسـة العساكـر.

ــ من خبرك بهـذا ؟

ــ أنـا رأيت كـل شيء من...

ولم تشر الى الفرجة لانهـا ادركت انهـا مذنبـة مثـل تلـك الغريبـة اذ انهـا تجاسرت على النظر من الفرجـة. فتلعثمت لـكن الغريبة بـادرتهـا

ــ أنا عمري ما كنت فريستهم يا دادة. فلو عيطت ازيـد في الطين بلـة ويكثـر غضبهم علي. مـا وراءهم خوف اذا كانوا جماعـة.

ــ يظهـر عليـك خبيرة في العساكـر. هم ! هم ! يظهـر انك غريبة ؟

ــ انـا تونسية من قبلي. وصلت الجزائر من سنين وصعب الخروج منها من اجل الحرب. وعلى كل حـال الجزائـر بلادي مثل تونس.

لفظت جملتهـا الاخيرة بترفق فيـه حزن واستعطـاف فرق لهـا قلب دادة فاطمـة. فوجدتهـا جميلـة مسكينـة

ــ ادخلي يا بنيتي... ادخلي، ضيافة النبيء ثـلاثة ايـام.

وفتحت لهـا البـاب واسعـا وقادتهـا الى بيتهـا. نظرت اليهـا مليا فـوجدتهـا جميلـة لطيفـة. فكـان يشـع من وجههـا نـور ولازمت شفتيهـا ابتسامة فيهـا جاذبية وطمأنينـة. انهـا « تحفونـة » تـكاد لا تخفى شيئـا من نفسهـا. وتيقنت دادة فاطمـة ان مسعودا لو رآهـا لعشقهـا من أول نظـرة. سألتهـا

ـ ما اسمك ياحبيبتي ؟

ـ اسمي مسعودة

ـ هه ؟ اسمك مسعودة. هذي والله صدفة.

ـ ايوه، مثل اسم ولدك.

ـ كيف عرفت اسم ولدي ؟ انت مخيفة يا بنيتي. الله يسترنا منك.

ـ لكن انا أعلم الغيب... اجلس اخبرك عن ابنك وزوجك الحاج محند.

فازداد ارتياب دادة فاطمة. ابتعدت عنها تلقائيا وظنت ان صاحبتها جاسوسة ارسلها الجنود لتستخبر عن زوجها وابنها وما عسى أن يكون وراءهما. فساد سكون واحتارت دادة فاطمة. فكيف يمكن التخلص من هذه الغريبة ؟ ألم يوصها ابنها ثم زوجها ان تتحذر متى سالها سائل عنهما ؟ الآن قد فهمت موقف العساكر منها. فهي عميلتهم وليس المشهد الذي رأته من فرجتها الا لذر الرماد في العيون. لكن لم تعمل هذه الجميلة اللطيفة جاسوسة ؟ يجب التحذر منها الآن ثم تقدمت نحوها فانزعجت مسعودة من موقف دادة فاطمة وسكونها فبادرتها

ـ اظن شكك في يكثر... انا عمري ما كنت جاسوسة على اخواني فارتعشت دادة فاطمة وكادت تصيح. لكنها هدات روعها.

ـ كيف عرفت ولدي وزوجي ؟

ـ أنا قلت أعلم الغيب. أنا اقراه في عينيك وفي كفيك وقلبك. صلي على النبيء واجلسي ومدي يديك يا دادة، ربي يهنيك وبالفرج ياتيك. اجلسي، اجلسي.

فرن كلامها جذابا آمرا فانقادت دادة فاطمة ومدت يديها.

ـ دادة صلي على النبيء

ـ صلى الله عليه وسلم.

ـ دادة قلبك ولعان يفكر في الفرسان، الله يرجعهم سالمين. قولي امين.

ـ آمين يارب العالمين.

دادة واحد اسمه مسعود شاب يدافع عن الشرف والارض والجدود. الله يحميـه من الشر والاعـادي. اذكري سيدي عبد القـادر.

— يا سيدي عبد القـادر.

يادادة زوجك علالة، شيخ نبيـه تركك ومشى لنار المدافع لتحيـا الجزايـر ويعيش الحق وتمـوت المنـافع.

— دادة ابنك وزوجـك في...

ثم اطرقت رأسهـا حزينـة. فبادرتهـا دادة فاطمـة

— في وعكـة. في خطـر. قـولي ؟

فحركت رأسهـا مؤيـدة ثم اضافت

— ... انا أرى ولدك ينادي... ويصيح يادادة ارحمي بلادك وبلادي. اذا عسعس الليـل وقصدك اخواني معاهم عتـادك وعتادي، احفظيـه ومـا تسلمي في امـانـة الـوطن.

فاضطربت دادة فاطمـة وفقدت وعيهـا

— ما يعني بعتاده وعتـادي ؟

— سلاح يأتي به الليلـة الخوان ويضعـوه في دهليزا بيت « العـول ».

استقامت دادة ثم عـاد اليهـا شكهـا. حدقت في صاحبتهـا فلاحظت ان عينيهـا مخلصتـان صادقتـان لكن وجههـا اخذ يصفـر ويذبـل. مـدت لهـا يدهـا لتقودهـا الى بيت « العول » لكنهـا رفضت ووضعت يدهـا على بطنهـا ثم اطلقت « زخرة » متألمـة

— مـا بك يا بنيتي ؟

— لا شيء، والله، لا شيء

لكن دادة فاطمـة تقدمت منهـا ولمست بطنهـا ثم شهقـت

— انت حامل يا بنيتي. حاملـة يا ربي سيدي. هيا معـاي الى السـدة.

— لا. لا. عـدي الجماعة وصلـوا. هيا نمشي نترقبهم قرب البـاب.

— قـولي، انت عرفت مسعـود والحـاج محنـد ؟

— ايه. انـا اخدم مع جماعتهم من مـدة.

— لكن الطفل...

فلم تجبها بل تقدمتها الى فناء المنزل واضعة يدها على بطنها. ظلتا ساكتتين تفكر كل منهما في الآخرى ثم تجاذبنا حديثا حزينا عن الحرب والقرية وتونس ويوم النصر.

— دادة، السلاح هذا لا تسلميه لاحد... ولو لمسعود او الحاج محند.. لا يسلم حتى للنبيء محمد الا اذا كنت انا حاضرة.

ترددت دادة فاطمة واستغربت من فحوى صاحبتها لكنها قبلتها مقتنعة. شعرت ان دافعا خفيا جبارا يدفعها الى استيثاق تلك الفتاة. تركت نفسها ترضخ لذلك العامل الداخلي متيقنة انها بداية البلوى.

كانت الليلة مظلمة باردة فتناولت دادة فاطمة بطانية ووضعتها على ظهر مسعودة التي كانت ترتعش وتتألم ساكتة. كانت النجوم تلمع في السماء وكانت القرية ساكنة لا يزعج هدوءها سوى طلقات مدفعية بعيدة تنبيء عن معارك تجري في المناطق الجبلية المجاورة. وكانت الافق تلتهب من حين لآخر ثم تعود اليها ظلمتها الدهماء — . وفجاة ارهفت مسعودة السمع وحبست دادة فاطمة نفسها. سمعتا عوائين تبعهما صفير. فردت مسعودة بالمثل على تلك الاصوات. ساد سكون تبعه مواء. فردت مسعودة ثانية على ذلك وما كادت تنتهي حتى دخل عليهما مجاهد وبيده رشاش

— السلام على اهل الخير. •تأسفين على تأخرنا يا مسعودة. اين الدهليز يادادة فاطمة ؟

فقادتهما الى بيت « العول » حيث رفع المجاهد صخرة كبيرة مخفية تحت التراب. فبان الدهليز مظلما مخيفا باردا، يقود الى بيت قد سدته حجرة رومانية ثقيلة تبدو للغريب عن المكان كانها جزء لا يتجزأ من الحائط. فيقل ان ينتبه احد انها باب عندما توصد. وقفت عندها دادة منتظرة المجاهد الذي خرج مع مسعودة. عاد يتبعه مجاهدون كثيرون قد حملوا على اكتافهم صناديق ضخمة. ظلوا ينظمونها بالبيت الداخلي ودادة فاطمة تنظر اليهم مشتاقة محتارة. فخيل اليها أن دهليزها قد حوى سلاح الجزائر كلها. لاحظت بعد حين ان الجنود اخذوا يحيونها بقدر ما كان عددهم يقل حتى اقبل عليها قائدهم فاغلق الدهليز وغطاه بالتراب ثم خاطبها

– بالسلامة يادادة... لا تنسي وصية مسعودة. هذي قبلة من عندها واخرى من عند الاخوان... الله في عونك.

– لكن مسعودة حامل يا وليدي. يلزمها تبقى وتستريح. لا تتركها تمشي.

– راحت وعديها قربت من الغابة.

– يا وليدي رجعها. هي حامل يا وليدي.

– بالسلامة يادادة... الله معاها ومعانا. لعلها ترجع لك...لعل لاخذ الاسلحة. ثم خرج من البيت ودخل في الظلام. فلحقته دادة فاطمة متعثرة.

– يا وليدي... اترقبني اوصيك لمسعود... والحاج. يا وليدي بالله.

لكنها لم تجد له اثرا فلم تر الا الظلام يحيط بها ويلتهم رجاءها. طأطأت رأسها حزينة وشعرت بطمأنينتها تهرب عنها. فلقد جعلها هولاء الاخوة الغرباء تحس بأنس وبجو فيه عطر وحرارة. فظهر اليها ان محيطها يفرغ شيئا فشيئا يكاد يوحي الفراغ الى نفسها. وبغتة تذكرت الاسلحة. فشعرت بدمها يفور في عروقها. فلو لم تكن بالدهليز لارتمت عليها وتحسستها بجسمها وعقلها لتستزيد من ذكرى أهلها ولتقتل شعور الوحدة الذي كان يخيم على نفسها. تذكرت بعد حين كلمة القائد المتعلقة بمسعودة. فتساءلت عما يعنى... هل يعني ان عودة مسعودة غير مضمونة... وعودة ابنها وزوجها ؟ لكن لا فائدة في اجهاد النفس. سوف تترقب كما فعلت طول حياتها. وسيكون جهادها الاستسلام.

∴

مرت الايام وكادت دادة فاطمة تنسى كل شيء. رجعت اليها طمأنينتها التي تحولت سريعا الى تشخيص فيه استسلام يظهر العالم من ورائه تافها بليدا متواكلا فلم تلاحظ دادة قدوم الربيع ولم تسمع تغريد الحمام الذي استقر قرب بيت "العول". فلقد ذبل نظرها ولم يرق لها حتى النظر الى الافق عندما تغرب الشمس. فكانت ترى فيها صورا غريبة جميلة تتمازج وتتناطح وتتفرق بطيئة او هاربة كأنها مخلوقات تمشي في الفضاء الذي يعكس صور الارض والقرية اللتين لم ترهما منذ ان دخلت بيتها عروسا.

شعرت لاول مرة ان حالها هو حال المرأة المسلمة. لقد كتب عليها ان تعيش ثانية ثانوية لا تعرف من الحياة الا القنوط. فلا هزة ولا لوعة.

لكن هل يعني ذلك انها تريد ان تصبح مثل مسعودة ؟ كلا. كلا... ان مسعودة ليست مسلمة. انها كافرة لانها تحمل حراما في بطنها. فالمسلمات لسن مغامرات. لكن مسعودة مغامرة اذن فهي كافرة. مسعودة زانية اذن فهي كافرة. مسعودة سافرة اذن فهي كافرة. ان كفرها مثلث لا يغتفر.

ارتاحت دادة الى نتيجتها الاخيرة فشعرت بروحها تحيا اثر ذلك النزاع بين عقلها ودينها. ألقت نظرة على فناء المنزل فرأت الحمام يستعد للنوم. قصدته مرتعشة. الحمام هنا ! لقد عاد بعد غياب طويل. فلقد هرب من الحرب — ولكن هذه لا تزال قائمة . ترحى الاباء والبنين؟ قبضت على حمامة فقبلتها ثم تركتها عائدة الى بيتها مفكرة. لقد وجدت الحمام واقعا على الحائط عندما وصلت عروسا الى بيتها. فظل يأتي كل سنة في نفس الفصل. فكانت تنتهز وصوله لتحيي مع زوجها ذكرى زواجهما. فكانت تبخر البيت وتتعطر وتلبس أجمل حليها وتطهي احسن اكلة ثم تجلس قرب الحاج عاشقة ساكنة مخلصة فلا تستحي من ابنها مسعود عندما يداعبها — يا عروسة ما احلاك. من أي بر جئت؟

— من بلاد العين والزين. هي اتحب ازوجك بغزالة حتى تفرح الاميمة ويبرم الحاج "شلاغمه" ؟

فيقاطعها الحاج :

— أترك هذي العجوزة يا والدي... هي عروستي انا يا ولدي يا مسعود.

ثم يتقاعس مغرورا. ما احسن تلك الايام ! لقد ذهبت مع الشباب والسنوات الخصبة والمسلمين. يا ليتها تسمع صوت الحاج قبل ان تنام. آه تلك هواجس . أطفأت شمعتها واستعدت للنوم. فما كادت تغمض عينيها حتى سمعت صوتا يناديها. فارهفت السمع، فإذا ببابها يطرق واذا بصوت ينادي

— يا فاطمة... يا فاطمة

ثم ساد سكون. انها الهواجس وتأثير السن والوحدة. فتعوذت من الشيطان واغمضت عينيها. لكن الصوت عاد حزينا وظل ينادي رتيبا هزيلا. نهضت دادة وقصدت فناء المنزل ثم اصغت فكان الصوت يشابه صوت الحاج محنند. لكنه صوت مخيف فاشل

يا فاطمة. يا فاطمة. افتحي الباب يافاطمة.

فهرولت الى الباب وكادت تفتحه بكل ما اوتيت من قوة لكنها ترددت لانه خيل اليها انها سمعت اصواتا تهمس وخطى تبتعد.

اتكأت على الباب وقالت

— الحاج ! انت هو ؟

– فاطمة يافاطمة افتحي الباب
– من معك ياحاج ؟
– انا وحدي... وحدي. افتحي الباب. انا وحدي.

ففتحت الباب فرأته واقفا وبيده عصا.

– اين سلاحك ياحاج ؟ اين مسعود ؟

لم يجبها ودخل المنزل متعثرا ثم قال متلعثما

– تركت سلاحي عند الاخوان. مسعود لاباس عليه... لاباس وأضاف

– الليلة ليلة زواجنا. هنئي بالك ولكن انا مسافر الليلة.
– الى اين ؟
– راجع الى الاخوان بعدما اتفاهم معك
– تتفاهم معاى ؟ وفي أي شيء ؟
– في الامانة الموجودة عندك... في السلاح.

لاحظت ان كلامه يزداد تلعثما كلما ذكر السلاح والاخوان. فاجابته متحذرة

– ما عندي سلاح يا حاج.

اقترب منها قليلا ومد يده. فكانت ترتعش. حدقت في وجهه فوجدته ضعيفا قد قلت لحمته وبرزت عظام فكيه وذبلت عيناه تكاد لا ترى. فاستنتجت ان طباخي المجاهدين لا يحسنون الطهي ولا يعرفون كيف يحضرون اللقمة الدسمة التي تغذي الجسم شحما ولحما. ولا شك انهم يحتالون عليه احيانا فيأكلون ما لذ وطاب ويتركون له النزر القليل منه ذلك لانهشيخ ولأنه متواضع . ارادتان تتحقق من ذلك لكنه بادرها

– اعطيني الاسلحة يا فاطمة ؟

فازداد خوفها منه. فكيف يطلب الاسلحة وليس معه مساعدون لحملها ألم يقل انه أتى وحده. فردت عليه

– ما عندي اسلحة يا حاج. ومن اتى بها هذه اللاسلحة ؟
– اتى بها مسعود ابننا.

شكت لاول مرة في زوجها ولاحظت انها جادلته وشقت عصا الطاعة في وجهه. فلقد اصبحت فاجرة كافرة. سألته

– متحقق انك وحدك يا حاج ؟

– نعم... نعم انا وحدي

ثم نظر خلفه فرأت الخوف في عينيه. فخافت عليه وعلى نفسها وتيقنت ان زوجها اصبح خائنا. فشعرت بتلك الخيانة تهجم عليها فظيعة وظهر لها وجه زوجها وضعفه وتلعثمه. اصابها ارتعاش وكادت أن تبكي لان اقرب الناس اليها يلطخ عرضها. فلقد تحملت الجوع والوحدة ذلك لانها كانت تعيش من كرامته وتبرر بها منزلتها. اما الآن ؟ سألته

– اين توجد الاسلحة يا حاج ؟ ألم يدلك مسعود على مكانها ؟

– لا. لم يشر الى ذلك. قال أمي تعرف ذلك.

فاحتارت لانه يعرف الدهليز معرفة جيدة. اعاد الكرة محسورا

– اعطيني الاسلحة يا فاطمة. عندي الوقت فات

– انت مجنون يا حاج !!. ما عندي اسلحة. ما عندي اسلحة. فصرخ

– اعطيني السلاح... أعطيني سلاح

– ما تعني يا حاج ؟ ما تعني يا...

فلم يجبها وتقدم نحوها متدعثرا فخافت منه وتأخرت لكنها رأته يسقط مغميا عليه. فهرولت نحوه وما كادت تدركه حتى رأت أشباحا تقترب منها. إنهم جنود مدججون بالسلاح. احاطوا بهما ثم اشبعوهما ضربا وركلا خاطبها احدهم

– اين الاسلحة ؟

– ما عندي اسلحة.

لطمها ثم هددها برشاشة

– اين الاسلحة يا...

ساقها أمامه ثم جاب البيوت مع جنوده فعاثوا فيها فسادا دون ان يعثروا على شيء.

سلط نور مضواته على عينيها وسألها

– اين الاسلحة التي اتت بها الدقازة ؟

فلم تجبه. لطمها لطما شديدا ثم أمر جنوده

– خذوها. عندنا طرق ستجعلها تعترف بكل شيء.

فرمى بها في ناقلة طارت بها في الحين. فظنت انها سبيت. هولاء والله مجانين ! لكن لا تسبى الا الفتيات الحسان امثال مسعودة. انها عجوز لا تسمن ولا تغني من جوع. فصاحت تنادي المسلمين لنجدتها فضربها جندي بموخر بندقيته على جبينها فأدمى. شعرت ببرق يلمع في عينيها ثم رأت محيطها ينقلب على نفسه. فبقدر ما كانت السيارة تجرى كانت الدنيا ترقص مضطربة امام عينيها. فكانت الافق الحمراء تتحول يمينا ويسارا ثم تقترب منها تكاد تضمها في حركة لولبية. اما مساكن القرية واشجارها وحجارة الجبل فكانت تمر بها سريعة مرتعشة صائحة كان زوبعة هاربة بها: فحتى الاغربة كانت تطير مسرعة محتارة من السيارة المجنونة والغبار الذي كانت تثيره وراءها فيتحول سريعا الى ذيل طويل كثيف يغشي كل شيء. فكانت الدنيا تسرع وتهرول وتجري تكاد تطير نحو موعد فات أوانه. نظرت دادة فاطمة الى مرافقيها فرأت وجوها معقدة زادتها الخوذات والاسلحة تزمتا وغيظا. شعرت لاول مرة انها اصبحت كافرة مثل مسعودة فريسة العساكر. تيقنت ان كفر مسعودة لا يختلف عن كفر ابنها مسعود الذي كفر بظلم القريب والبعيد وبالتزمت والجهالة وبالجوع والمرض وبالركود والتواكل. فالجزائر اليوم كافرة بكل ذلك. فلم لا تكفر معها ؟ فالكفر ثورة تقود الى سلامة النفس.

∴

فتحت دادة عينيها مذعورة. لقد سمعت صوتا ينادي ويبتهل ويصرخ ويبكي ثم يسكت. استغربت من ذلك ومن وجودها في زنزانة جرداء مظلمة يدخلها النور من شباك صغير. لم تدرك كيف دخلته لكنها تتذكر كيف اغمي عليها نتيجة جرحها وسرعة السيارة ورائحة النفط التي لا تتحملها جوارحها. أحست بالم في ظهرها وكتفيها ورجليها فأرادت ان تقوم. لكن صوتا صارخا مسمرها في مكانها. فكان ينطلق

في الليل متوسلا جافا باحا ثم يسكت مغلوبا. فظننته مريضا يتوجع. لكنه عاد مناديا خائفا ليس فيه بكاء بل عـواء حائر وضعف مغلوب. فأصغت اليه مليا ثم نادت تلقائيا كما كانت تفعل بقريتها عندما يستنجد الغريب والضعيف والمريض

– يا مريض لاباس عليك ! اينك ؟ اينك ؟

لكن الصوت عاد صارخا فصرخت معه

– ارحموه ! ارحموا المسكين !

فتفرقع صوتها داويا ثائرا ثم سمعت اصواتا اخرى تنادي مثلها فتحمست وصاحت

– ارحموه ! ارحموه ! ارحموه !

فدوت اصوات كثيرة ارحموه ! ارحموه ! ارحموه !

دوى السجن وكثرت انواره وعمته ضوضاء وأوامر واقدام تخبط الارض والابواب. فخيل اليها ان السجن سينفجر. وفجأة رأت بابها يفتح وترمى منه جثة عارية كادت تتحطم على الارض. خافت منها وظلت تنظر اليها. لا حظت انها امرأة. تقدمت منها وجستها. فرأت وجها متورما يسيل الدم من اذنيه. رفعت يدها فانقادت مرخية دامية. فظنتها ماتت. انحنت على صدرها فسمعت قلبها يدق ضعيفا هزيلا. نزعت قميصها الداخلي والبسته الغريبة ووضعت رأسها على ركبتها ثم نخفت في فمها متحمسة كأنها تنفخ فيها من روحها. لكن دون جدوى. ظلت تنظر اليها مستسلمة الى ان فتحت الغريبة عينيها. نظرت إليها ثم همست مضطربة

– قولي لهم كل شيء والا يقتلوك

تراجعت

– لا ! لا ! اه ! اه ! لا ! لا !

قلت حركاتها وضعف نفسها وقلبها. فشعرت دادة بالحياة تفارقها رويدا رويدا فارادت ان تكافح الموت. نفخت في فمها ثانية وهمست إليها وكلمتها مغصوصة

– يا بنيتي يهديك الله... يا بنيتي انا معاك. ابقي حية. يا بنيتي انا اعطيك كل شيء حتى لباسي وابقى عارية

نفخت في فمها ثالثة لكن الشابة ماتت. فظلت دادة فاطمة تنفخ في فمها ثم انهالت تقبل جبينها ويديها ورقبتها كأنها تريد ان تضمد جروحها. تركتها وقامت ثم هرولت نحو اركان الزنزانة الاربعة ومدت يديها باحثة عن وسيلة تحمي هذه الشابة من الموت. دارت حول نفسها ثم جلست بالقرب منها وظلت تبكي ساكنة ثقيلة مسكينة. ارادت ان تشكو امرها الى الله لكنها عدلت عن ذلك لانها شعرت ان فكرة الله تولد من الالم. فلو فنى الالم لفنى الله معه.

تقدمت نحو الجثة مترددة ثم تذكرت أن الموتى يفدون. لكنها لا تعرف من القرآن الا القليل فابتدأت بالفاتحة. لكن سرعان ما سكتت لان باب زنزانتها قد فتح ودخل ثلاثة زبانية. ركل احدهم الشابة ثم جس نبضها

– ماتت... القحـ... لقد ماتت. خذوها.

نظر الى دادة متجاسرا

– سيكون مصيرك مثلها ان تعنت. سنبدأ بك قريبا

فنظرت اليه متحدية ثم اغمضت عينيها متخيلة مصيرها. شتمها الجندي وركلها

– ستعترفين. ستقولين كل شيء.

شعرت بغضب يحرق احشاءها فلم تقدر على كبته وصاحت

– على مطرة والدجاج يكح...

فلطمها لطمة شديدة سقطت على الارض واحست بكيانها يهدم.

– سنرى من سيكون الغالب

فأجابت ضعيفة

– انت... لا شك.

فأجابها

– سنبدا بتجويعك... لن تنالي شيئا من الآن.

خرج واصحابه فاقتربت من الحائط وارتكزت عليه متوجعة. اصابها

ارتعاش وحيرتها تلك الفتاة التي ماتت بين يديها. يا ربي سيدي ! انها انها تشابه مسعودة ! انها هي ! لم تعرفها منذ حين لانها كانت في لوعة. اما الآن فهي متيقنة انها هي. كادت تجن ثم تساءلت عما ستفعل وما ستقول بم ستقاوم ؟ ستقاوم بالصمت والجوع ؟ سخرت من تهديد الجندي ومن تجويعه إياها لان الجوع رفيق قديم لا تخشاه. ابتسمت رغم حالتها عندما تذكرت قصة روتها لها مسعودة لما جلستا تنتظران وصول الاسلحة. روت لها ان الجوع عم تونس في سنوات مضت حتى كاد يبيد الناس. فوفد القوم على باي تونس اذاك يستنجدونه. فخاطبه شيخهم

ـ يا سيدنا الناس فنوا من الجوع. ساعدهم يا سيدي.

فلم يكترث بهم الباي وصرفهم. لكنهم عادوا إليه مرارا. ففكر قليلا ثم صرخ في وجوههم منتصرا غاضبا

ـ اياكم عني... إياكم عني ! ليأكلوا الروز بالدجاج.

تناست تونس ونظرت الى الشباك فرأت أنوار الفجر تدخل هينة الى الغرفة. اقتربت من الشباك واستكشفت فرأت عمارة عالية قد جربت جدرانها وكثرت شبابيكها التي كانت تطل على ساحة واسعة غبراء حزينة فيها حفر كثيرة. فظهر لها ان هذا السجن يشابه جميع سجون العالم لان وجه الظلم واحد وان اختلفت بلدانه. شعرت بدوران وخيل إليها انها تعيش حلما غريبا لا تدرك مغزاه.

هاجمها النوم لكنها ظلت مستيقظة مذعورة اذ سمعت ضوضاء امام بابها الذي فتح ودخل زبانية الليلة الماضية يجرون وراءهم ما يشابه الرجل فرموا به على الارض فسقط متهشما كمسعودة ميتة البارحة. ظنت دادة انها ستشاهد احتضار انسان آخر. اغمضت عينيها واحست بقلبها يضعف. فلا شك انها ستموت مع هذا او مع الثالث. انها تستطيع كل شيء حتى موتها لكنها لا تتحمل رؤية الناس يموتون امامها دون ان تجد وسيلة لنجدتهم. فهي متيقنة ان ضعف وسيلتها هي سبب موتهم. سمعت العسكري يصرخ

ـ هل عرفت من هذا ؟

فسكتت لكنه اعاد الكرة

– أقتربي منه وانظري اليه.

ترددت لكنه ركلها ودفعها. فتقدمت من الطريح ودلكت عينيها ثم نظرت. شهقت وتأخرت. قالت متلعثمة

– لا. أنا لا أعرفه...

– انت متحققة من ذلك ؟

فسكتت وتقدم الجندي من الطريح وركلت رجلاه بطنه ووجهه فتوجع وانكمش ثم سال دم من فمه وجبينه. رفعه اثنان من الزبانية فاستقام ثم سأله العسكري

– هل عرفت هذه المرأة ؟ هل تركت عندها الاسلحة ؟

فلم يجب ورأت دادة وجها متورما كان عشرات الامواس قد جرحته. اما عيناه فكادتا تكونان مغلقة. أنعمت النظر فيه فاحست بقلبها يتدلى يكاد يصل الى معدتها. أغمضت عينيها كي لا تراه لكن الضابط رش فريسته بالماء قائلا

– هذي امك ؟ قل لها انك ارسلت لها الاسلحة مع الدقازة ؟ هذا ابنك. دلينا على الاسلحة وسنخفف عن عقابكما.

– لكنه ليس ابني ولا اعرفه.

فتساءل الضابط متهكما

– هذي امك ؟ هذا ابنك ؟ غريب.. غريب ! هذا عقوق. متى اصبحت الام تنكر ابنها وهو في هذه الحالة هه ! هه ! تلك اخلاق المجرمين... الام تنكر ابنها وهو في هذه الحالة. كادت دادة تموت. أصابها ارتعاش لما رأت المعذب يبكي وقد انحنى رأسه مشوها على كتفه. تفتحت عيناه وشفتاه ثم همس

– يا دادة... يا اخـــ...يتي.

ارادت ان تصيح لكن الضابط قاطعها

– ارأيت ؟ انه يناديك ويتوسل إليك

قرنت اسنانها وشدت يديها ثم صرخت

– لا. لا. ليس ابني. انت لست ابني ولا سلاح عندي.

فأستنتج الضابط

ــ اذن سيموت غدا... فالخيار لك. عندك ساعتان... فكري. حياته في يديك.

ثم جروا المعذب الذي ألقى نظرة حائرة حوله.

جابت دادة بيتها طولا وعرضا تارة تستند على حائط وتارة تشد رأسها. كادت تأكل أصابعها. لن تعترف به ابنا. لان في ذلك هلاكهما. ان في انكارها نجاته لانهم لن يقتلوه دون حجة. فما هي حجتهم ؟ فهي ليست امه وهم لا يعرفون مكان الاسلحة. لن يقتلوه دون حجة. الا توجد عدالة ؟ لن تعترف به لانها ستخون الامانة التي سودت الغراب. ففيها حياة مئات من الناس وفي ابنها حياة واحدة. لكن الا تساوي حياة الفرد حياة الافراد ؟ ان الحياة هي الحياة سواء تعلق امرها بواحد او بملايين. اننا نتضامن جماعة ونتألم ونموت فرادى. اقتربت من شباكها وألقت نظرة على الشبابيك الاخرى فرأت يدا تشير إليها كأنها تحييها. رأت ايادي اخرى تحييها ثم سمعت صوتا : .

الصمت. الصمت الله معاك يا دادة

تركت شباكها مسرورة بتلك الاخوة البعيدة المجهولة التي باركت صمتها. فشعرت انها مبررة في موقفها من ابنها. فلعله كان المنادي من الشباك البعيد ؟ ولعله زوجها الحاج محند ؟ والا فكيف عرف اسمها ومكانها ؟ ولم تستمر في تساؤلها اذ عاد إليها الزبانية وقد شمروا على سواعدهم وبدت وجوههم مريعة

ــ هيا يا دادة قولي اين هي الاسلحة ؟

فظلت صامتة. فأعاد الضابط السؤال. فلا جواب. تقدم منها ولكم وجهها فاهتزت وتدعثرت ثم تهشمت على الحائط. احاطوا بها جميعا وانهالوا عليها ضربا وركلا ولكما فاحست بقذائف الدنيا كلها تسقط على رأسها وعنقها وصدرها وبطنها. ففقدت كل قواها وتيقنت انها ستموت اذ لم تستطع التلفظ حتى بالشهادتين.

استيقظت من غشيتها هزيلة فوجدت الدم يكسوها. نظرت حولها فرأت ضابط الزبانية ينظر إليها ثم قال متهكما

ــ لم تمت. هيا نخرج. فلن نرسلها الى جهنم قبل ان نعرف مكان الاسلحة.

ـــ اسمعي. بعد يومين اما الاسلحة والا ابنك ثم انت.

ثم خرج. لم تدرك كلامه تمام الإدراك لكنها تذكرت ابنها. تذكرته لما فارقها لينضم الى المجاهدين. فلقد قبلها حنونا متحمسا وقال مغرورا

ـــ ان الشعوب المظلومة الغاضبة تخنق باسم غضبها ان لم تثر.

فنظرت اذاك الى زوجها خائفة من عنف ابنها فهدأها قائلا

ـــ العنف من شيم الطاهرين واليائسين يادادة...

ثم قادها الى بيتها ليسليها. فضمها إليه وترنم مترفقا لطيفا

يادادة : يادادة

يا خدود الوردة

يادادة . يادادة

يا قمر الظلمة

انها اغنية راجت في ايام شبابهما. فكان يرددها على مسمعها في اوقات الشدة والفرح وتذكرت ان زوجها كان يسليها ليخفف عنها لوعة فراق ابنه وفراقه هو. فسرعان ما تركها وظلت وحيدة بالقرية. اما اليوم فلقد إلتحقت بهما. والحق انها وجدت ذلك طبيعيا. لكن ما هو الطبيعي في الاحتفاظ بالسر وترك ابنها يهلك ؟ استولى عليها حزن ثقيل ثقل صخر الجبال فشعرت ان ابنها وزوجها والزبانية والاسلحة والامانة قد ركبتها كلها وجعلت تعقر جسمها عقرا. احست بحمى تحرق جسمها ورأت شرارات واسرابا تتلاعب امام عينيها وسمعت اصواتا تهمس ثم تصرخ... لا تقولي شيئا. لا تنطقي. انهم لن يقتلوه دون حجة. العدل موجود.. موجود... موجود. لا تخافي. تشبثي بالامانة لان فيها حياة المئات... الامانة. الامانة... لا. لا. لا توجد عدالة في هذه الدنيا وعند هؤلاء الزبانية... حياة ابنك ليست في يديك ولو نطقت ولو سلمت الاسلحة... ابنك سيموت... ولقد مات منذ ان فارقك... سيموت سيقتل... لا. لا. دليهم على الاسلحة وسيعفون عنه... سلميهم الاسلحة... حياة الفرد تساوي حياة الافراد. لا تخافي فلن يلومك لائم في ابنك.

ورأت ابنها بغتة. فكان واقفا متورم الوجه لا عينين ولا اذنين له.

شهقت ووضعت يدها على فمها. انه لن يسمعها ولن يراها ان شاءت استشارته في معركة ضميرها.

عادت الى ادراكها بعد ليلة ويوم كاملين فوجدت نفسها في زنزانتها الباردة المظلمة. كانت منهوكة العقل والقوى حتى استحال عليها التفكير في أي شيء فمالت الى النوم واغمضت عينيها. لكنها سرعان ما قامت مرتجفة. سمعت اصواتا تترنم فاصغت فإذا بها حناجر تردد

- الله اكبر ! الله أكبر ! الله اكبر !

فهرولت نحو الشباك لكن بابها فتح وظهر الزبانية يسوقون ابنها امامهم. خاطبها كبيرهم

- الاسلحة ومكانها والا سيرمى ابنك بالرصاص الآن.

فسكتت وتأخرت مرتعشة. فسألها ثانية

- اين الاسلحة...؟ مصير ابنك في عهدتك. اسمعي المهللين. انهم يهللون عليه.

فتقدمت ومدت يديها متوسلة ثم نظرت الى ابنها وسألته عيناها. فرأته يشير إليها برأسه ان لا تنطقي. فاجابت

- ما عندي اسلحة ولا هو ابني. أنا لا اعرفه بتاتا.

فغضب الضابط وصرخ

- سترين الآن... ان موته كان مقررا على كل حال. وسيكون دورك قريبا.

فتيقنت ان نكرانها كان مفيدا. لكنها لم تصدق ان مسعودا سيفنى الى الابد. فلن تنظر إليه عيناها ولن تمسه يداها وتداعب شعره وتقدم له الاكلة اللذيذة وتغسل ثيابه وتفرح له فرحة العمر. انها لا تصدق ذلك لان الفرنسيين لن يقتلوه لانهم كثيرا ما صرحوا انهم من احباب الاسلام والمسلمين وانهم اهل انسانية وانهم لا يهينون من يثور ولو كان عليهم.

جابت البيت طولا وعرضا وخبطت فخذيها وصدرها وغطت عينيها

ثم هرولت ذات اليمين وذات الشمال ثم وقفت قرب شباكها. فسمعت اصواتا تصرخ من الشبابيك الاخرى

— شهيد دايم حي... شهيد دايم حي... شهيد دايم حي. شهيـد...

اشتدت الاصوات وتضامنت فعلت ودوت تكاد تهز السجن. فكانت تلفظ جملتها في مقطعين متناسقين ايقاعيين كانا ينطلقان ويرنان كاصوات المدافع. رأت بغتة جنودا بساحة السجن وقد ارتدوا خوذاتهم وحملوا سلاحهم وساقوا ابنها امامهم. فوقفوا به حينا ليكون عبرة لغيره. ازدادت الاصوات تحمسا ولاحظت ان ابنها يسعى لاستقامة عنقه. فخيل إليها ان ذلك العنق يزداد استقامة بقدر ما كانت الاصوات ترتفع. فكأن اصوات المساجين كانت تغذي روحه وتحييها ليظل حيا دائما في موته العارض. اضطربت دادة ولم تعلم ما عسى ان تقول ثم رددت مع المساجين

— شهيد دايم حي... شهيد دايم حي

لكن المساجين ترنموا

— شعب الجزائر مسلم والى العروبة ينتسب...

فترددت ثم صاحت

— هو ابني مسعود... اناامه. الاسلحة عندي في الدهليز... هو ابني مسعود اهرب يا مسعود يا كبدي... اهرب. اهرب

لكن الاصوات طغت على صوتها فغصت ونادت

— اسكتوا يا ناس... اسكتوا. اتركوهم يسمعوني. هو ابني

وظلت تصرخ ثم توجهت نحو الباب فدكته ونادت الضابط لتعترف حتى اصابها الفشل فرمت بنفسها على الحائط تريد ان تموت توا مع ابنها. فخرت مغشيا عليها.

— الحمد لله على خلاصك يادادة.

لم تنظر الى مخاطبها واستمرت تمشي همها الوحيد ان تتجنب المخلوقات التي كانت تجري في الطريق صائحة مغنية رافعة الاعلام الجزائرية . هرولت بغتة ثم وقفت خائبة. لقد رأت شيخا يشابه شيخها الحاج محند. لكن ذلك كان هوسا. سمعت صوت مخاطبها ثانية

ـ يادادة اين انت ماشية ؟ مدينة الجزائر كبيرة...

نظرت إليه فرأت شابا مليح الطلعة باسم الثغر. فسألته

ـ من أنت ؟

ـ انا مسعود من لجنة التضامن. أنا في خدمتك.

ـ ساعدني على مقابلة ابني وزوجي...

فأجابها مخلصا دون أن يدرك فتور صوتها :

ـ هيا معي الى مركز لجنة التضامن.

فاتبعته. فكان يساعدها ويرفق بها كلما وقفت تنظر مليا الى الجماهير الفرحة المترنمة بعهد الاستقلال الجديد. فكانت تفتش تلك الجماهير لعلها تفوز بشيخها او ابنها... فلعله لم يقتل ـ حتى بلغت دارا عربية بحي القصبة. فرأت جماهير مصففة واقفة تنتظر وتستخبر. فهذا عن ابن وتلك عن زوج واولائك عن عائلة كاملة. فوقفت في الصف وانتظرت. فرأت اطفالا ونساء وشيوخا قد ظهرت على سيمائهم الحيرة والالم والامل. لاحظت إن بعض النسـاء كن يخرجن باكيات من المركز فأرادت ان تخرج من الصف اقتناعا منها ان لاجدوى في الانتظار ، لكنها لم تيأس من رحمة المفاجاة والصدفة. جاء دورها فبحثت عن مسعود فلم تر له اثرا. تشجعت ودخلت فناء الدار الواسع ثم اتجهت الى غرفة كبيرة فرأت شبانا وشابات واقفين امام طاولات قد وضعت عليها صناديق. فلقد ملئت جذاذات كان الشبان ينحنون عليها ثم يجيبون السائلين مبتسمين مهنئين او مسلين تقدمت دادة من شاب طويل القامة فسألها متلطفا

ـ ما حاجتك يا دادة ؟ ما اسمك ؟

ـ اسمي دادة فاطمة بنت خالد وزوجي الحاج محند من قرية الجزائر وولدي مسعود... لابد تعرف ولدي مسعود... هو يشابهك.

ثم سكتت. فلعل المعجزة تقع فيخرج ذلك الشاب ابنها من بين تلك الجذاذات.

سمعت الشـاب يخاطبها

ـ دادة فاطمة بنت خالد... انت معروفة...

– لكن ابني معروف اكثر مني وكذلك زوجي ومسعودة التونسية... أخبرني عنهم

لم يجبها حالا فاستأذنها ثم توجه نحو شابة جميلة لا تفارق الابتسامة ثغرها. هرولت نحو دادة وقادتها الى غرفة هادئة. خاطبتها

– دادة فاطمة... كيف صحتك ؟

– الله يبارك فيك يا بنيتي... لكن انا فاهمة. فهمت قصدك. قولي ما عندك. ابني وزجي ومسعودة ؟

فاطرقت الشابة رأسها متألمة ثم نظرت الى دادة قائلة

– كلهم شهداء عند الله رزقهم.

فنظرت إليها دادة نظرة حادة وردت عليها

– ولم لم تموتي انت ويرزقك الله ؟

فتلعثمت الشابة وقالت

– كلامك معقول... لكن لوعتك لوعة الناس الكل. مثلك كثيرون.. وحمل الجماعة ريش يا دادة.

خرجت دادة مسرعة دون ان تصغي الى الشابة التي ارادت ان تساعدها على حل مشاكلها. وجدت نفسها في الشارع أمام صفوف المنتظرين فنظرت إليهم مليا الواحد بعد الآخر ثم تقدمت فشعرت انها فارغة وحيدة مسكينة. تركت نفسها تتدحرج وما كادت تندمج في الطريق الرئيسية المؤدية الى المدينة العصرية حتى سمعت صوتا يناديها. فدارت حول نفسها فرأت مسعودا يجري نحوها باسم الثغر.

– ما وجدتي شيئا... لكن سمعت امرأة تسأل عن مسعود بن الحاج محند من قرية الجزائر.

فابتسمت حزينة

– انت تخلط يا وليدي... كنت أنا هي السائلة.

– لكني رأيت المرأة. هي شابة مليحة

ـ شـــابة مليحـة ؟

فلم يجبهـا وجرهـا حتي وصلا امام دار لجنـة التضامن. اندفعـا نحو امرأة قد اعرضت عنهمـا بظهـرهـا فتحضنهـا مسعود ونـادى

ـ هذه صاحبتنـــا

فالتفتت المرأة المعنيـة مندهشـة. فرأت دادة فاطـمـة عجوزا تبكي. نظرت الى مسعـود معاتبـة ثم تحركت معتقدة ان كل شي قد انتهى. وما كـادت تصل اخر الشـارع حتى سمعت صـوت امـرأة

ـ يا دادة. يا دادة

فلم تلتفت ظانة انه مسعـود يتهكم عليهـا. لـكن الصوت رن ثانية

ـ يا دادة يا أم مسعـود... أنا وجدتـه والله وجدتـه.

ارتعشت دادة ودارت فرأت امرأة شابة مقبلـة نحوهـا. حدقت فيها ثم صرخت

ـ مسعـودة... ! مسعـودة يا بنيتي !

فتعانقتـا وتبادلتـا القبـل باكيتين. تناولت مسعودة يدهـا وقـادتهـا قـائلـــة

ـ انـا وجدتـه... هيا والله وجدتـه

ـ وايـن ؟ ... قـولي الحـق !

ـ اجري معي. انه ينتظرنـا مع مسعـود

فجرت دادة دون ان تتحذر من حجـر الطريـق ولم تتشجـع على طلب المزيـد من الاخبـــار.

شعرت بدمهـا يفور وبالمدينـة تشتعل نورا وبالشوارع تزدهـر وتتسع. كـانتـا تجريـان لاهثتيـن وكانت يد مسعـودة تمسك يد دادة. فاحست بتلك اليد تخرجهـا من الظلمـات الى النـور وتطير بهـا بعيدا بعيـدا. اندمجتـا في حي كثيـر الازقة حتى بلغتا ساحـة واسعـة فيهـا جامع لامع. فوقفت مسعـودة وأشـــارت

ـ انظـري إليهمـا.

ـ لكني لا أرى شيئـا

ـ تحت الصومعة. انظري الى مسعود يركب عنق الحاج محند الجالس على الارض. اه انه سيسقط عمامته.

فسألت دادة مستغربة

ـ مسعود يركب عنق الحاج ؟ هذا كلام غريب يا بنيتي. مسعود رجال. فهمت مسعودة قصدها فهمست لها

ـ مسعود الصغير... اعني ابن ابنك

ثم اردفت غير مترددة

ـ دادة. الحاج فقد عينيه... ساعديه

تقدمتا نحو الشيخ والطفل فارتمت دادة على الحاج وقبلته. فقام وتعانقا. تركته دادة وارتمت على مسعودة وطفلها فقبلتهما تقبيلا حارا وظلت تقبل هذا وذاك وهذه حتى التف حولهم جمع من الناس مستغربين من هذه المرأة التي ما شبعت من تقبيل ذويها. ازداد استغرابهم لما رأوها تتجه نحوهم وتقبل كل من وقف امامها. فظنوها مجنونة. فقامت مسعودة لتهدئها لكنها اجابت باكية

ـ اتركيني بالله. اتركيني.

واستمرت تقبل الناس. فخيل إليها تقبل المجروحين والمعذبين والمتألمين والمعدومين. فكانت تظن ان قبلها تضمد جروحهم وتكفكف دماءهم وتحمي بشرتهم وتخفف من لوعتهم وتزيدهم صبرا. انهم ماتوا لكن هؤلاء ابناؤهم واخوانهم وامهاتهم وآباؤهم. فلقد ورثوا من لوعتهم وعذابهم. اذن ليرثوا من القبل التي خصتهم بها دادة فاطمة. وتمنت لو قبلت الجزائر كلها والارض ومعذبيها والبشرية ومساكينها. توقفت لاهثة ثم جلست قرب شيخها وتحضنت مسعودا. سمعت الحاج يقول

ـ هيا يافاطمة. هيَّا نرجع الى بيتنا

فأضافت مسعودة

ـ عدي وقت السفر وصل يا دادة. هيا. أعطيني. مسعود

ـ لا. لا. اتركيه عندي

ثم نظرت الى زوجها محدقة في عينيه الفارغتين. فشعر بذلك فقال حزينا متهكما

– هه. والله شيء غريب. عمري ما رأيتك احسن من اليوم يا دادة... يا خدود الوردة.

فقامت واخذت بيده حنونة معاتبة

– ما زلت متحمسا حتى في هذه الحالة. فبادرتها مسعودة

– الخالدون من ظلوا متحمسين ولو في الظلمة الحالكة.

فنظرت الى مسعودة مبتسمة فرحة بها ثم توجهوا نحو محطة الحافلات كي يعودوا الى قريتهم. قبل قدوم الليل. فكانت دادة تمشي مطأطأة الرأس ثم تنظر خلفها من حين لآخر... فلعل وعسى ؟

محمد رشاد الحمزاوى

رجــــــل بلـــــغ القمـــــــة

بقلم : البشير الديماسي

اذا كان العالم الاسلامي ـ في القرن العاشر م ـ قد أخذ يسير بخطى حثيثة نحو السقوط والانهيار نتيجة لما أصابه من الانقسام والتفكك وتكالب الامراء والقواد على النفوذ والسلطان ثم لتسرب أجنــاس مغـايرة للعرب من فرس واتراك استغلوا ضعف الخلفاء فاستبدوا بهم وأذاقوهم ألوانا من الذل والهوان رغم انتفاضات هذا (المريض) من حين لآخر عندما يقيض الله له رجلا قوى الشكيمة شديد الحرص على ترميم هذا البناء المتداعي ، مع كل هذا نرى في الناحية المقابلة ارتقـاء الحضارة الاسلامية الى قمـة التقـدم ونراها تتطـور وتستوعب خلاصة الحضارات الاخرى من غربية وشرقية بدرجة لا مثيل لها ٠٠٠ فالتأخر السياسي كان يقابله ولا يوازيه اندفاع حضاري نحو القمة ، ولا اخالني أبالغ كثيرا اذا قلت ان أبا الريحان محمد بن أحمد البيروني قد فاز بقصب السبق لتبوىء هذا المكان الشاهـق ٠٠ حتى اذا مـا تقدمنا مـع السنين والقرون نرى كل مفكري الاسلام مجترين مقلدين أكثر منهم مبتكرين ونراهم يلهثون محاولين بلوغ هذه القمة بدون جدوى ٠٠٠ وكيف يستطيع من أذواه الهزال العقلي وأضعفه الخمول الفكري الوصول اليها ؟٠

وقد وجد في القرن العاشر م من دفعته الغيرة الدينية والطموح السياسي الى مد رقعة الاسلام مرة أخرى نحو الشرق : ففي غزنة ، تلك القرية المغمورة التي لم يسبق لها ذكر ، ظهر محمود الغزنوي الذي ما ان نشر جناحيه عـلى يمينه ثم على شماله حتى رنا بنظره الى الهند أو الشمال الغربي منه ، والذي اطلق عليه منذ سنة 1947 اسم باكستان ، ان نشر الاسلام في هـذه المنطقة الشاسعة والبعيدة عنا انما يرجع الفضل فيه الى هذا القائد الجرىء الشجاع الغيور ، وما زالت بعض المساجد أو المنشآت التي شيدهـا هنـاك ماثلـة الى الآن تنطق بمآثره ، سواء كانت في البنجاب أو في لاهور أو في ملتان او في كشمير ٠٠٠ وعلى كل فنحن انما عرجنا للحديث عن هذا « الغازي » كما كان يلقب غالبا لكي نعرف بانه لم يكن يرمي الى التوسع العسكري فقط ، فقـد رأى بثاقب فكره وبصيرته أن هذا التوسع العسكري لا يمكن أن يثبت أو يدوم الا اذا دعمه توسع ثقافي وروحي ٠٠٠ مثله في ذلك مثل الاسكنـدر الاكبر من قبل عندما أراد ـ بعد أن حقق حلمه بفتح فارس ووصوله الى تخوم الهند ـ أن يمزج حضارة هذه البلدان الشرقية بالحضارة الهلينية ٠٠ وهو ان فشل في ارساء قواعد امبراطورية مترامية الاطراف بعد أن قضى نحبـه وهو في ميعة الشباب ، فقد نجح ـ بعد موته ـ في القيام بهذا العمل الجليل

وطعم الحضارتين ببعضهما بعض ٠٠ ومثله فعل فيما بعد فى القرن 18 نابليون بونابرت عندما حمل معه الى مصر نخبة من العلماء كانت البذرة التى أينعت فيما بعد وأيقظت العرب مما كانوا سادرين فيه من سبات وفتحت عيونهم على مزايا الحضارة الغربية وبثت فيهم الحمية والحماس ـ بعد ما راعهم وأدهشتهم حالة التخلف الفكرى الذى وجدوا أنفسهم عليه ـ للحاق بركب هذه الحضارة ٠٠٠

فالسلطان محمود الغزنوى كان رجلا حربيا متدينا سنيا يقرأ العربية ويعجب بطلاوتها دون أن يغوص فى أعماقها كثيرا ٠٠ وقد فكر ـ كما قلنا ـ فى أن فتحه أو غزوه العسكرى لا يمكن أن يبقى أو يصمد ويؤتى بثمرته المرجوة اذا لم يواكبه (فتح) لعقول سكان هذه المنطقة من الهند ، وهو عمل مهم ولكنه شاق وعسير اذا أدركنا مدى تمكن جذور البوذية فى نفوس الهنود ، واذا ادركنا الشوط العلمى الذى قطعوه وبالاخص فى الرياضيات والفلك ، واذا علمنا بأن لهم فلسفة خاصة تغاير تماما فى نظرتها الى الوجود وتفلسفها للحياة نظرة المسلمين اليه واليها ٠٠

من هذه الزاوية نستطيع أن نفسر طلب محمود الغزنوى من أمير خوارزم مأمون بن مأمون أن يبعث له بعلماء بلاطه وفى طليعتهم البيرونى وابن سينا ٠٠٠ واذا كان الاخير قد فر ولم يستجب لنداء من أجهز على الدولة السامانية التى عاش فى ظلها فان البيرونى (I) الذى ولد فى خوارزم سنة 973 م وهو الرجل الطلعة المتواق الى الاسفار والتعرف على الامصار وأحوال سكانها وطبائعهم وعقائدهم ، الجسور الذى لا يهاب الاخطار التمزيق الحجب التى تحول دون وصوله الى هذه الغايات ، لم يقعد عن الرحيل اليه والانضمام الى سمط علمائه الكثيرين ٠٠ ثم اصطحبه فى غزواته الى الهند فكان « غازيا » آخر يلبس جلباب العلم والوقار ويحمل فى نفسه روح التسامح والود والحب والبعد عن كل عنصرية بغيضة ٠٠ وهكذا بينما كان السلطان يشهر سيفه فى وجه الامراء الهنود ويهدم معابد بوذا ويعلن كلمة الاسلام وسط صهيل الخيول وضجيج فيلة الاعداء ٠٠ كان البيرونى تحت ستار الهدوء والسكينة وبما كان يكتسب من وداعة ولطف وحسن سيرة ، يجوس مدة سنين طويلة خلال الدساكر والقرى والمدن والجبال والفيافى والوديان لاستكناه أسرار هذه البلاد الشاسعة ٠٠وهو فى الحقيقة لا يقتصر على الاخذ والتسجيل فقط بل لقد كان ـ كالنحلة ـ يمتص ويعطى ٠٠ انه يقوم بعملين متكاملين قل من يستطيع الاضطلاع بهما فى آن واحد : التعرف والتعريف وهو ما سنحاول تفصيله فيما يلى من الحديث :

واذا درسنا كتب البيرونى سواء كانت فى التاريخ أو الجغرافيا أو الفلك

(I) نسبة الى مدينة بيرون فى السند

أو الرياضيات أو الفلسفة أو الطبيعة ألفيناه قد اتخذ لنفسه طريقة خاصة فى الدرس والبحث هى أشبه ما تكون بالطريقة المنهجية التى يتوخاها العلماء الثقاة اليوم ، وقد اشتهر فى هذه الابحاث بالتجرد الكامل والنزاهة الصادقة والنظر الى الامور نظرة موضوعية خالصة بعيدة عن التأثيرات الذاتية ·· حاول البيرونى أن ينضو عن نفسه كل الشوائب الجنسية والاجتماعية والدينية بقدر ما أسعفه الجهد حتى تكون النتائج التى يتحصل عليها أقرب ما تكون الى الحقيقة ، وبهذه الروح نقد كثيرا من شؤون الفرس بنى جلدته والعرب والمسلمين والمسيحيين ، وبهذه الروح أيضا اكتسب ثقة هؤلاء جميعا ··· ثم هو بعد هذا كله لا يمكن أن يسلم بشىء الا بعد وضعه على محك التجربة الطويلة والدقيقة الامر الذى فعله بعد ذلك فرانسيس باكون فى القرن السابع عشر فى كتابه Novum Organum عندما أشاح عن الطريقة المدرسية القديمة واعتمد على ما تفسر عنه التجربة من نتائج ·· وانظر ما يشترطه البيرونى فى مقدمة كتابه « الآثار الباقية ·· » الذى سنذكره بعد حين للوصول الى النتائج الصحيحة : « ··· بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية لاكثر الخلق ، والاسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهى كالعادة المألوفة ، والتعصب ، والتظافر ، واتباع الهوى ، والتغلب بالرئاسة وأشباه ذلك ·· وبغير ذلك لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد ··· »

البشير الديماسى

للبحث بقية

الفكر
مجلة ثقافية
تصدر شهريا بتونس
مديرها المسؤول : محمد مزالى
رئيس التحرير : البشير بن سلامة
المراسلات : صندوق البريد 556 ـ تونس
الحساب الجارى بالبريد 33769 ـ تونس

ظـــــــلم الببغــــــــاء

بقلم : الحبيب براهم

هي ليلة بلهاء عمياء من ليالي الشتاء المتحرك في برود . ليلة من ليالي شتائنا الجهنمي جنت فيها الطبيعة جنونها فخبطت خبطا ورقصت وهم، ولت وأعولت عويلا ليلة لست تدرى ان ضحكت لفرط حزنها او بكت لشدة فرحها . ليلة كأنها عروس في مأتم جادت فيها السماء فاغرقت . ليلة كالزنجية العجوز تبكي فتبدو اسنانها كحد السيف عند امتشاق . ليلة بصقت السماء على وجه الارض في اشمئزاز فسال البصاق سواقي لزجات دعاها الناس انهارا وبحارا . ليلة صمت لفرط غيظها حاولــت ان تصبح لتسمع نفسها صيحات افاقت لها السماء مذعورة سكرى فـاهوت على جبين الارض تصفعه بسياط من ماء ...

واستمرت الحال لا تـمر ، واضطجع الليل على الـدهر يتمطى . فـلا الارض تثوب لرشدها ولا الرحمة تعرف الى قلب السماء سبيلا ...

وسار في جوف الليل شاب فركه الـدهر فركا ومضغه قليلا حتى احس بـه مرارة فعبس ومجّه مجّا ، شاب لطمه الحظ الصديق فقرران يتخلّص من نـفس لاحظ لها ولا صديق ...

كان يظن الحياة غير « هذا » فابتسم لها حتى عبست له وراودها حتى صفعته فقرران يفارقها عزيزا قبل ان تعجل بطرده في اهانة واسترقاق ...

لقد أحبّها ...

أحبّها حتى احب الله في اعماق عينيها الشهلاوين ، واحب في ابتسامتهـــا الوجود .

رآها يوما فخيل اليه انه ما انفك من قبل يراها ، وتعرف اليها بعد ايام فأيقن أنه انما خلق لها كي تعلن على شفتيه روعة الجمال ، فسبح وهام ...

دخلت عليه كوخه الصغير فوسعته ووسعته حتى لامست حدوده اطراف الدنيا وشارف سقفه آفاق الخيال ، وزينته فزانته حتى توقفت ايامه عند منتصف الربيع .

ودخلت عليه قلبه الصغير فاوسعته واوسعته حتى اصبح به يتنفس وعليه يمشي

وقاس على دقاته مغزى العمر...

وهو الليلة يدخل كوخه من جديد ، فاذا الكوخ كوخه الضيق البليد ، واذا به صغير قبيح كئيب كأن في كل شبر منه جدارا ومسمارا ، ففر منه مورم العينين ممزق الاعصاب موزع النفس مختنق الانفاس .

لكن ، الى اين يفر؟

الى أين ؟ وفي كل مكان كوخ وفي كل شبر جدار ومسمار ؟

الى اين يفر ، وهذه دنياه صحراء باردة لارجاء فيها ولو لرجاء ؟

ألم يرجعه أبوها خائبا مدحورا بعد ان سأله عما يملك من مال وعقار؟

ألم تسخر منه أمها حينما قالت له بين ضحكة وغمزة : « "أخذ" النساء يستلزم الذهب والفضة وأنواع الحرير ... فمن اين لك هذا وانت الكادح في سبيل الخبزة الجافة والسيجارة والخيط الوضيع ؟ »

ألم تختف عنه الفتاة فجأة على غير موعد وقد كان يضمهما اللقاء كل مساء؟

الى اين يفر وفي كل مكان قفر وفي كل زمان مساء ؟

ثم ما جدوى الحياة بلا أمل ؟

لقد كان بها يبني الكون غير الكون ومن اجلها يعشق الكفاح. فلما هجرته تزلزل الكون واضطرب مقصوم الظهر كأنه « أغادير » عريضة . فمن أجل من يحمل اليوم السلاح؟

وسار... كمن لا يسير...

لكأنه كلمة جوفاء ماتت وان ضمتها القواميس ... لكأنه حمار بليد نتن الجلد تحمل حوافره الوسخة اليأس في دنيا غير دنياه ...

واين منه الآن دنياه ؟

الى اين يفر منها وقد قصرت آماله عنها ؟

* * *

ولم يرض لنفسه الهوان بين الناس فهانت عليه حياة ليست الا للناس..
وتوقفت خطواته عند مصطرع الموج والصخور...

وانسابت على الشاطىء المخمور فتاة حافية شقراء . تلهو الرياح بثوبها الهفهاف وشعرها الوهاج .

وغاصت قدماهاالصغيرتان في الوحل الاسود زهرتين في مزابل الدهر الحقود

مالها ؟

ما لها تسترق السمع في أنين الطبيعة والارباب في مجون ؟

كيف تجرؤ هذه الوقحة على التدخل في عراك الجبارين ؟

أليس لها كما لغيرها من حشرات الارض لباساً في الليل ومعاشا في النهار ؟

ما لها تعكس الامور ؟

يا ويلها !

.... وأمعنت الطبيعة الصماء في التعذيب، وتفننت في اللطم والصفع واللسع والتخديش ... لكأنها انشغلت عن خصامها الابدي بهذه الدخيلة تلقنها دروس الالم .

يا ويلها !

... وسارت الفتاة بين عثرة وانكباب. وامتزجت على وجهها برودة المياه وحرارة الدموع ...

تلك السماء « الرحيمة » تغسل فيها الجراح ،

لا لكي تُسكت صوت العذاب ، لا !

بل لتجديد اللهيب ...

... وسارت كأتون الالم

لكأنها روح الارض تزهق بعد طول جهاد

لكأنها ظل الظلام ، في صدرها وهج الحريق يشع من فحم الصقيع ...

وهل يهمها تجريح وتشويه ؟

هل يهم الشاة سلخها بعد ذبحها وهي المذبوحة بساطور ذهبي؟

هل يهمها أن تسيل دماؤها هنا أو هناك بعد أن بعج كونها وبقرت

آمالها باصابع من حرير ؟

ألم يرده أبوها رد القسوة والجفاء ؟

أبوها ؟ أصابه الوباء !

ألم يجرؤ على رده ، فبعثر زهوراً غرستها بكل ما في روحها من حنين ؟

ألم يُقدم على بيعها بيع السوائم والعبيد ؟

ألم يشترط في ذلك الملايين ؟

بلى ، لم يخجل الشقي من ردّ حبيبها ردّ اللصوص !

كيف يمكن لها بعد هذا ان تطمع بلقاء الحبيب ؟

كيف يمكن لها أن تلم شعثه وتضمد جراحه وتغسل عنه اوساخ أبيها ؟

كيف تنزاح أوحال الصدور ؟

ليته لم يطلب منه يدها ! ليته لم يفعل !

لقد شاء وهو الطيب النفس أن يكون البناء بمرضاة مجتمع بغيض فنال منه ما ينال كل من يحسن للضباع !

كلا ! لتغسلن بروحها عار أبيها ، ولتنجون بنفسها البيضاء من وسخ الحياة ، أف لها من حياة !

* * *

وابتسمت زنجية الطبيعة المجنونة في استهزاء

وبدت أنيابها البيضاء في ومض البروق

وبدا بين أشداقها السوداء انسان غريب... تعلّق في الفضاء حينا ثم غطاه الظلام ...

وتعالى في الفتاة قلبها حتى اللسان ...

عرفْتهُ !

عرفْتهُ !! ... لكن ...

بعد أن فات الأوان

لقفته موجة في حضنها ثم عادت واستقامت وهدته لصخور جائعة

* * *

واستفاق الرب مذعوراً كئيبا ...

قد رأى في حلمه مشهد ظلم البشر ...

فاستشاط الغيظ فيه وهدر

... لا شريك للرب في مجازر الابرياء !

... ما لحمقى الارض للظلم المقدس يحتذون ؟

وابتسمت زنجية الطبيعة المجنونة في اغراء

وبدت اسنانها البيضاء في ومض البروق

وبدا بين أشداقها السوداء إنسان غريب تعلّق في الفضاء حينا ثم غشاه الظلام

وتعالت في هدير الليل صيحات الاله ، رجع الرعد صداها كالطبول :

« لا ! لا تعيدوها إلي ..

هي أيضا لم يحن فيها الأجل ..

أرجعوها !

واخطفوا روح أبيها ! »

قالها الرب العجوز بعد أن فات الأوان .

... لقفتها موجة في حضنها ثم عادت واستقامت وهدتها لصخور جائعة .

* * *

ثم جرته

وجرتها

للجحيم ...

الحبيب براهم

حـــــــولاء

شعر : حسين سفطة

حَولاء زيَّنكِ الحـَـوَل ْ سُبْحَـانَ رَبي إذْ عَدَلْ
هَل ْ تَعْرِفينَ بأنَّ في لمَحَـاتكِ الحيْرى حِيَلْ؟
إما رَنَـوْتِ فَـرُبَّـمَـا تَعْنِين بالجدَّ الهَـزَلْ
وَإذا مزحْتِ بِنَظـْـرةٍ فلربَّمَا حصل الجَـدَلْ
مَنْ لي بشرحِ نواعسٍ ؟ مَنْ لِي بما تعنى المُقَـلْ؟
يَا حيرتِي مِنْ لحْظِهَـا لا سِيَّما عند الخَجَـلْ
فإذا كتمتُ عَواطِفِـي فلمَنْ اصرِّحُ بالامَلْ ؟
وإذَا صَمتُّ، إلى متى أبْقَى يُلازمني المَلَـلْ ؟
ومتى كشفتُ حقيقتِـي قـالـوا : بنظرتِهَا ثمِلْ
وإذا دفنْتُ لواعجِـي قالوا : لانَّه لم يـزَلْ
يُخفِي سرائرَ حُبِّهَـا يتصَبَّو لرعشاتِ القبَـلْ
إنـي أعاهـدها عـلـى كتمان حبٍّ مشتعـلْ
يبقَى على طول المَـدى لا ينتهِي... لا يكتمـلْ
إنـي أحُبكِ هكـذَا حوراء فِي ذاك الحـولْ
فلقد لبستُكِ حلـة بالرَّغم عن تلك العِـلَلْ
ولقدْ عصرتُكِ مهجـة مِنْ غير زيْفٍ أو دَجَلْ
وجعلتُ عطرك مُنيتـي حتَّى يُبَاغتني الاجَـلْ
إني لاقسمُ صادقـا لا أنثنِي... لا أنفصِـلْ
عن حبِّ عـذراءٍ رأتْ رمز الهوى في المكتهـلْ
طهـر . وصدق حبُّـهُ مِصداقُ شَهْمٍ اوْ بَطَلْ

حسين سفطـة

الشمــس والـقــمــر

تدرجت ملكة النهار في عليائها، ترنو الى سطح البسيطة من اجوائها، يحفهـا الجلال، ويكتنفها الجمال، تزيد السماء بهاء، والارض انتعاشا وازدهاء، وقد حالت بينها وبين الكواكب، وطمست كل شهـاب ثـاقب، فتناجت تلك الاجرام، وقالت تالله لات حين احجام، فلقد مسنا اللغوب، ولكن صبرا الى الغروب، وما انتهت هذه النجوى حتى انبرى اسطعها نورا، واسرعها سرى، قائلا ان الصبر على هذه الحالة، يعد جبانة ونذالة، كيف الرضوخ الى كوكب فرد، ونحن عصبة كثيرة العدد، فإن رضينا ونحن الاكثرون انا اذا لخاسرون، وهل يليق أن تسود فحول الذكور، انثى ولو فاقت بمحاسنها الحور، ثم اليس من المذلة والعار، أن تخضعوا لكتلة من نار، وهل نسيتم مقامها الفخيم، بأنها عين الجحيم، وانها الكوكب الخطر، يهدد المهاود بالخطر، الستم ذوى الفخر الزائد، والراجمين كل شيطان مارد، حاول استراق القول، فجعلتموه كعصف مأكول.

الكواكب : وكيف يكون الصنيع، ايها السيار البديع، وهل من طريقة للخلاص. أم لات حين مناص.

السيار : أنا لا أرى الا انابة النبيّ الاكبر، جلالة القمر الازهر، فهو احد القمرين، وثاني الازهرين، وهو القادر أن يتعقب سيرتها ويكتشف سريرتها، وينتصب باسمكم ضدها، ويوقفها عند حدها، تمت النيابة، وعززت بكامل الإجابة، ثم ابتدأ العمل، يوم تم البدر واكتمل، تعرض ضحى للغزالة، وقال عمي صباحا ايتها الجوالة، اني مرسل إليك بخطاب، فناظر منك الجواب.

الشمس : من ارسلك أيها الساري، ألعلها عصبة الدراري، فما شأن هذه الفصيلة، ذات الاشعة الضئيلة.

القمر : انها وان كانت ضئيلة، فليست بالفئة القليلة، وجدير بأن يخشى تهديدها، لانها كثير عديدها .

الشمس : اني لا اتنازل الى الكلام، مع هذه الاجرام، فليست عندي في المقام الاهم، ولا تسمح بمخاطبتها المروؤة والشمم، ولكن اطلعني على سبب نيابتك وابن فحوى رسالتك،

القمر : انها تشكو استبدادك في ملكوتك، وتنكر تعاظمك وجبروتك.

الشمس : اني لا اعترف برسالتك، ولا أعبا بنيابتك، فإذا تجردت عن هذه الرسالة، واردت ان تنتصف لنفسك من ذات الجلاله، فإني اهتم بخطابك، واتكرم بجوابك، فإن نجحت في مهمتك، جاز أن تطمح في ذلك امتك، وان خبت فإن اسطعهم وأسراهم، وأجلهم وادناهم، فقد كفيتهم مؤونة النزاع، وأفهمتهم وجوب الطاعة والانصياع، وايقظتهم من هذه الاحلام، فيعلموا ان لا سبيل الى ذلك المرام.

القمر : ها أنا ذا مناقشك عن نفسي الحساب، فاستعدي ان شئت للجواب، فأول ما يقال وما يعتبر، هو مرتبة الانثى من الذكر، ولا يحتاج هذا الامتياز الى دليل، ولا يدخله ريب ولا تأويل، ثم ألم تعلمي أم غرك الغرور، ما نسبة النار من النور، وهل جهلت أني قيصر الاملاك، وزعيم سابحي الافلاك، واني انفث هدايتي من ضل السبيل، وعدم الرشد والدليل، بعد ما قطع الرجا، واعماه الدجى، ألم يبلغك عظيم وقعي على قطان المهاد، اذ أشرقت عليهم ليلة اكتمالي المعتاد، فكم هام بمحاسني الإنسان، وسارت بذكري الركبان، فوضعوني في المقام الاجل، وصدروا بي رأس الغزل.

الشمس : حسبك يا هذا فقد تدحرجت من الاجواء البعاد، وتدليت الى ذات العماد، فاستمع لما يوحي اليك، لتعلم ما لك وما عليك، أما قولك، أن الاناث أحط من الذكران، فهو محض خلط وهذيان، اولا فافضلية الذكور لا تعم الافراد، وليست لكل منهم على انفراد وثانيا أن هذه الافضلية، لا تتسلط الا على ذوي الفروج الحقيقية، وأنت ما اولجك من هذا الباب، الا قربك من التراب، فحسبت اننا على السوا، أعني أهل الارض وابراج السما، وأما قولك ايها المهذار، بأفضلية النور على النار، فهذا لعمري عين البحران، او مناغاة سكران، فأنت الذي غرك الغرور، فأصبحت تفاخر بالنور، فقل لي بعيشك من أين اتتك الانوار، لو لم تكن من اشعة النار.

مصطفى آغا

تكوين الجموع اللحنية

في المـــوسيقى العربية

بقلم : المنوبي السنوسي

تعريفـــات

المـــوسيقى

الموسيقى : صناعة تأليف الالحان ، ويتألف اللحن من الاصوات ،

الصـــوت

الصوت « حس » يشعر به بواسطة الاذن ،

ايجـاد الصوت

ترجع الاصوات جميعها الى مصدر واحد : هو وجود جسم ما في حالة تذبذب ، والتذبذب هو اهتزاز الجسم في حركة تقدم وتأخر سريعة متكررة أى حركة تردد مستمر على وتيرة واحدة ،

والجسم المتذبذب الذى يحصل عن تردده صوت هو اما جسم صلب مثل الوتر الذى يشد على آلة من آلات الطرب ، واما جسم مائع مثل الهواء الحاصل داخل انبوب الآلة الموسيقية من ذوات النفخ ،

انتشـــار الصوت

انه لمعلوم ان الصوت ينتقل من مصدر حدوثه وينتشر في جميع الجهات، أما كيفية اذاعته وبثه وأسباب تقدمه فذلك باب من أهم أبواب علم الفيزيـا وأكثرها تشابكا : على أنه يجدر بنا أن نذكر لطالب الموسيقى باجمال بعض خصائص هذه الظاهرة الطبيعية مما ييسر له تفهم مادة صناعته ،

اذا كان للصوت أن ينتقل وينتشر فما ذلك الا بسبب وجود وسيط مادى تقبلت أجزاؤه حركة اهتزاز الجسم المتذبذب ، اذ لا صوت يسمع عن اهتزازات تحدث فى وسط خال من المادة :

ووسيط تقدم الصوت هو عادة الهواء الطلق اذا اعتبرنا الاصوات المستعملة فى الموسيقى وحدها ؛ على أن الغازات والسوائل وحتى الاجسام الصلبة قادرة على نقله مع تفاوت بينها فى ذلك ، ويرجع تفاوتها فى القدرة على نقل الصوت الى تفاوتها فى مقدار الكثافة وفى مقدار التصلب وفى درجة الحرارة ، على أن أصول تقدم الصوت أصول قارة على مذهب واحد مهما كانت طبيعة الوسيط الناقل:

تحدث فى وسيط تقدم الصوت حركة تموج متسلسل تجعل اجزاءه تتحرك الى الامام ثم الى الوراء بالتعاقب وبسرعة معينة محدودة بالنسبة لكل صوت معين ، على أن يكون ذلك بدون ان يحصل للاجزاء المتحركة فى اخر الامر أية ازاحة ما عن مكان استقرارها الاول ، بحيث تكون حركة التقدم هى التى تتقدم وليس الاجزاء بذاتها ،

وحركة تموج الهواء الناقل للاصوات الموسيقية انما هى فى الغالب حركة « تموج طولى » ذلك لان الجولات القصيرة التى تقوم بها أجزاء الهواء فرادى انما تسرى وهى ملازمة خط اتجاه الاضطراب •

ولا يسمع الصوت فى حين حدوثه لان انتقاله الى اذن السامع يستغرق زمانا معينا تابعا لمقدار المسافة التى يجتازها الصوت ولطبيعة وسيط النقل،ولا علاقة لسرعة انتقال الصوت بنوع الصوت ذاته ، حيث تصل جميع الاصوات الحادثة فى مكا نواحد المتنقلة بواسطة وسيط واحد فى آلة واحدة الى أذن المستمع الواحد مهما كان نوع تلكم الاصوات ومهما كانت طبيعة مصدرها •

وانتشار الصوت حركة متساوية ثابتة لا تتغير ما لم تتغير طبيعة وسيط الانتشار وذلك مهما بعد مصدر الصوت ، على أن سعة الحركة تأخذ فى التناقص شيئا فشيئا باطراد ، ويتبع ذلك نقص مستمر فى شدة الصوت وهكذا حتى تضمحل السعة وتقف فينعدم الصوت •

يجتاز الصوت فى الهواء الطلق الذى يكتنفنا عادة 340 مترا فى كل ثانية باطراد متى كانت الحرارة تقدر بست عشرة درجة مئوية •

انعكاس الصوت

عندما يواجه الموجات الصوتية حاجز يردها فتنعكس يطلق على الصوت الراجع المدبر اسم « الصدى » وقد يتعدد الصدى لوجود حواجز عديدة ترده بعضها لبعض •

نـوع الصـوت

الاصوات على تعدد انواعها تنقسـم بالاجمال الى قسمين : فمنها مـا هى أصوات غير منتظمة تأتى بغتة وبهـا خشونـة وعدم استواء ، واسماء مثل هذه الاصوات عديدة فى العربية

ومنها ما هى أصوات منتظمة لحدوثها عن ذبذبة دورية فتظهـر فى مظهـر سيل ناعم مستمر ، وتعرف مثل هذه الاصوات بالاصوات الموسيقية لانه من نوعها تؤلف الالحان ٠

تقدير الذبذبة الصوتية

تتميز الذبذبة بامور أربعة هى :

1 ـ « الدور » وهو الزمان بين مفارقة نقطة من نقط الجسم المهتز مكانا ما وبين رجوعها للمكان ذاته فى حالة استمرارها فى اتجاه واحد ٠

ووحدة قياس الدور هى الثانية ٠

2 ـ « التردد» وهو عدد الذبذبات الحاصلة خلال الوحدة الزمانية : فهو اذن مقابل الدور ٠

3 ـ « السعة » وهى أبعد نقلة تقوم بها النقطة من نقط الجسم المهتز اثناء حركـة التذبذب ووحدة قياس السعة هى السنتميتر ٠

4 ـ « الطور » وهو حالة النقطة المهتزة من حيث التنقل والحركة فى حين معيــن ٠

صفـات الصـوت

تتميز الاصوات فى حالـة استمرارهـا على وتيرة واحـدة وتختلف عـن بعضها بعض بثلاث صفات ظاهرة بينـة محسوسـة هى : الطبقة والشـدة والطابـــع ٠

أ ـ طبقـة الصـوت

أما طبقة الصوت فهى منزلته ومرتبتـه فى الارتفـاع والانخفاض ، وهى تابعة لدور التذبذب ـ أى تابعة لمقـدار تردد ذبذبات الجسم المهتز المحدثـة للصوت ، ولا تتوقف الطبقة على شىء اخر سوى مقدار التردد ، فكلما ازداد مقدار التردد كانت طبقة الصوت أعلى والعكس بالعكس ٠

ولا يكلف تمييز طبقة الاصوات السامع أيـة مشقـة ، وقد أدى الشعور بتفاوت الطبقات الصوتية وأدى وصف الطبقات بالارتفـاع والانخفـاض الى تسمية مراتبها فى ذلك بالدرجات والى تسمية تتاليها حسب مراتبها بالمدرج او السلم الصوتى أو الموسيقى ٠

ويسمى علماء العرب ارتفاع الصوت « حدة » وانخفاضه « ثقلا » ٠

ب ـ شدة الصوت

واما شدة الصوت فهى شدة الموجات الحاصلة عن التذبذب فى الـوسط الذى ينتشر فيه الصوت ، وهى تابعة لمقدار ما فى الموجة من طاقة للتسرى أثناء الوحدة الزمانية فى وحدة المساحة ، وهذا المقدار فى ذاتـه على تناسب مستقيم مع سعة الذبذبة ٠

ج ـ طابـع الصوت

طابع الصوت صفة له تابعة لشكل حركـة الاهتزاز ذاتهـا ـ أى تابعـة لمقدار الازاحة ومقدار سرعة الحركة فى حين من أحيان مدتها ٠

وقد أثبت « هلمهولتز » (Helmholtz) البحاثة الالمانى المشهور فى علم فيزيا الصوت ـ ان طابع الصوت هو ناتج عن أصوات أخرى أكثر منه حدة تنضم اليه اثناء حدوثه ، وتختلف الاصوات المضافة مع اختلاف الجسم الذى يستخرج منه الصوت الاساسى مع اختلاف الالات الموسيقية مثلا ٠

ان الاصوات اذا تساوت فى الطبقة وفى الشدة فبالطابع تتميز بعضها عن بعض ، فالاصوات المستخرجة من الحناجر البشرية ومن آلات الطرب اذا بانت للسامع مختلفة مع تساويها فى الطبقة وفى الشدة فسبب اختلافها لم يكن سوى اختلافها فى الطابع ٠

ومكونات طابع الصوت كميات طبيعية تحدد مقاديرها فى مخابر الفيزيـاء بكامـل الدقـة والضبط ، ويسعى لخلقهـا بالتحسس والاستقـراء الخبـراء المشرفون على صنع الآلات الموسيقية ، وليس للموسيقى مهما كانت براعته، قدرة على تغييرها كيف شاء تغييرا يعتبر ، بل يأخذ صاحب الموسيقى طابع الاصوات على حالته كما تخرجه الالة المختارة لاحداث الاصوات ، على انه فى استطاعة بعض المغنين أصحاب الحناجـر المدربة تكييف طابع أصواتهم بعض التكييـف ٠

وفى وصف طابع الصوت يتفنن النـاس فى اختيـار النعـوت وتعيـين المشابهات ، وقد وصف الفارابى كيفيات طابـع الصوت باسماء نقلها حسب قوله : « ٠٠٠ عن أشباهها من سائر المحسوسات بالحواس الاخر من مبصرات

وملموسات ··· كالصفاء والكدرة والخشونة والسلاسة والنعومة والصلابة والرطوبة واليبس والزم ··· » (1)

الاصوات الموسيقية

الموسيقى هى بالاجمال تأليف الاصوات : فلا تعتبر الاصوات فى صناعة الموسيقى الا متجمعة تجمع الالفة ولا ألفة الا مع الاختلاف ، فالذى يهم صاحب الموسيقى هو اصوات مختلفة متجانسة مرتبة فى جموع يأخذ منها مادة تراكيبه اللحنية ، ويطلق على الاصوات المتجانسة المتآلفة اسم الاصوات الموسيقية ·

وأهم ما يحتاج اليه صاحب الموسيقى من أمر الجموع الموسيقية هو تعيين مراتب أصواتها فى الارتفاع والانخفاض ، لان الطبقة هى أقرب صفات الصوت للادراك وأكثرها قابلية للتعريف والتقدير المدقق وأصلحها لتشخيص الصوت وتمييزه بالمقارنة والمقايسة والمناسبة مع غيره ·

ولما كانت طبقة الصوت متعلقة بعدد تردد ذبذبات الجسم المحدث له فتشخيص الصوت يحصل اذن على أتم وجه بتعيين عدد التردد ·

وبما أن عدد التردد قابل للزيادة بلا نهاية فكذلك الطبقات لا يحصرها عد ، الا اننا اذا اعتبرناها بالنسبة لقدرة حاسة السمع البشرية على الشعور بالمنحط منها وباعتبار طاقتها على تحمل اكثرها ارتفاعا فالطبقات تكون متناهية يحصرها حدان : حد أدنى من جانب الثقل ، وحد أقصى من جانب الحدة ·

ويعتبر الصوت الناتج عن «16» ذبذبة فى الثانية ادنى طبقة تشعر بها اذن الانسان ، والصوت الناتج عن «000 38» ذبذبة أقصى طبقة يتحملها السمع ·

وأما فى الموسيقى فالاصوات المستعملة تتراوح طبقاتها بين «30» و «4000» ذبذبة فى الثانية ، ع لى أن منطقة الاصوات البشرية أضيق من ذلك اذ هى تنحصر بين «65» و «044 1» ذبذبة ·

الابعاد الموسيقية

يرى صاحب الموسيقى الاصوات التى ينوى أن يؤلف منها اللحن الى سلسلة تتعاقب فيها تلكم الاصوات حسب طبقاتها : ويشخص وضع

---

(1) الفارابى : كتاب الموسيقى الكبير مخطوط جامعة لايدن عدد 1427
انظر ترجمة ايرلانجى الفرنسية فى الموسيقى العربية باريس 1930

المجموعة بتقدير تفاوت أصواتها بعضها على بعض ، ويطلق على الفرق بين أية طبقة من طبقات الاصوات وغيرها من الطبقات اسم « البعد الصوتى » ٠

فلا يتصور البعد الصوتى الا باعتبار صوتين يكونان طرفيه أو حديه : ينعت أحدهما بالطرف أو الحد الاثقل ـ وهو أحط الصوتين طبقة أو أثقلهما وينعت الصوت الاخر بالطرف أو الحد الاحد ـ وهو أعلى الصوتين طبقة أو أحدهما ٠

والبعد الصوتى انما هو كمية قابلة للتقدير والقيس والمقايسة ، يتمثل مقداره فى نسبة عددى التردد الحاصل عنهما حدا البعد ٠

ولما كانت الجموع تكتسب شخصيتها ووضع شكلها اللحنى من نسب الابعاد التى تتخلل طبقات أصواتها فهى تبقى على صيغة لحنية واحدة بعينها ما لم تتغير تلكم النسب وذلك مهما كانت اعداد التردد ، لذلك يتخير صاحب علم الموسيقى تمثيل جموع الاصوات فى تناسب عددية تمثل التفاوت بين كل طبقة من طبقات أصوات الجمع والطبقة التى قبلها أو بين كل طبقة وطبقة الصوت الاثقل الذى هو بداية الجمع وأساسه ٠

ولم يكن فى استطاعة القدماء ـ وهو فى قدرة سائر الناس فى زمننا هذا ـ الوقوف على تردد ذبذبة الجسم المهتز المحدث للصوت باهتزازاته وضبط ذلكم العدد بما يقتضيه التحرى العلمى من دقة ويقين ، وما تيسر ذلك الا فى عصرنا هذا بواسطة أجهزة استنبطها أصحاب العلم الحديث لهذا الغرض ولا يحسن استعمال مثل هذه الاجهزة سوى الخبراء المتدربين على ممارسة أعمال مخابر الفيزياء ٠

وقد فطن أصحاب الموسيقى منذ بداية أمر هذه الصناعة الى ظاهرة بينة توجد بين الصوت المستخرج من وتر من الاوتار المستعملة فى الات الطرب وبين طول الوتر : فاستخرجوا من تلكم الظاهرة الطبيعية قاعدة مطردة كانت السبب فى تقدم صناعة الموسيقى تقدما مستمرا أثناء العصور ، فصاروا يكتفون بالوقوف على نسبة الاطوال المحدثة للاصوات للوصول الى معرفة نسبة طبقات الاصوات ذاتها : وكانوا يضبطون نسب الاصوات المستخرجة من أجسام غير الاوتار بالمقايسة والمقابلة مع أصوات الاوتار ، وقد أتى علم الفيزيا الحديث مؤيدا لهذه الطريقة التجريبية اذ ثبت بالاختبار كون عدد تردد ذبذبات الوتر المهتز يتناسب تناسبا عكسيا مطردا

مع مقدار طول الوتر ، وذلك متى تساوت الاوتار ــ أو أجزاء الوتر الواحد ــ فى كل شىء سوى الطول والقصر (2) ·

∴

تآلف الاصوات ــ الاتفاق والتنافر

الملاءمة والمنافرة

لا تعتبر الاصوات فى الموسيقى الا مجموعات : فالصوت الفرد لا يعتبر فى ذاته ولا يهم صاحب الموسيقى الا فى حالة وجوده مع غيره ومن حيث ما يحصل عن وجوده مع غيره من مفعول فى نفس المستمع ·

ان الصوت اذا قوبل باخر مخالف له فى الطبقة فاما أن يلتئم معه ويتفق فيتلذذ المستمع ائتلافهما ، واما أن يتنافر الصوتان فيتأذى السمع ــ أى نفس المستمع ــ من وحشتها ·

يتبين بالتجربة أن تفاوت الاصوات فى الطبقة منه ما يجعل بينهما اتفاقا

(2) قاعــدة :

يستخرج التردد (أى عدد الاهتزازات الدورية الحاصلة فى الثانية الواحدة من تطبيق هذا القانون :

$$ت = \frac{1}{2\ ل\ نق} \sqrt{\frac{ع\ ق}{ط\ ث}}$$

حيث يمثل (ت) التردد

ويمثل (ل) طول الوتر

و (ق) قوة شدة الوتر

و (نق) نصف قطر مقطع الوتر

و (ث) كثافة الوتر

و (ع) مقدار العجلة الحاصل عن التثاقل فى الثانية الواحدة

و (ط) ٢٢

وتآخيا ومنه ما يحصل عنه تنافر وتباين ، بحيث وجب اسناد تآخي الصوتين وتباينهما الى مقدار ما بينهما من التفاوت فى الطبقة ، ولذلك وصفت الابعاد الصوتية ذاتها بالاتفاق والملاءمة وبالتباين والتنافر ، وكذلك النسب العديدة التى تمثل نسبة طرفى البعد ، وقد سبق أن ذكرنا أن نسبة حدى البعد الصوتى تستخرج من مقابلة عدد تردد أحد الحدين الى عدد تردد الحد الاخر ٠

وتآلف الاصوات منه تالف مطلق كامل تام وهو الذى يحصل بين أى صوتين تكون نسبة عددى ترددهما نسبة الضعف أو ضعف الضعف وهكذا باطراد ٠ وهذا التآلف هو نتيجة ظاهرة واقعية طبيعية لها شأن عظيم فى صناعة الموسيقى ، هى كون كل صوت والذى يناسبه نسبة الضعف اذا اقترنا ادمجا فى بعضهما بعض حتى يوهم للمستمع انهما صوت واحد، واذا تتاليا يكون شعوره بهما الشعور بالشىء الواحد الذى يتكرر بعينه ، لذلك كان علماء اليونان الاقدمون وبعدهم علماء العرب الاولون يعبرون على هذه المماثلة باعتبار كل واحد من الصوتين اللذين يتناسبان نسبة الضعف « قوة » من ذات الاخر ٠

ومن التآلف ما هو دون التآلف المطلق من حيث الكمال على أن شأن هذه التآلف فى الموسيقى لا يقل عن شأن التآلف الكامل بكثير ٠ وهى صنفان : التالف الناشىء عن نسبة 3/2 والتالف الناشىء عن نسبة 4/3 ٠

وما كان من الابعاد الصوتية نسبة حديه دون نسبة 4/3 فتآلفه ضعيف ومتعلق باوضاع تراكيب التلحين ، ومن أجل ذلك كان اليونان ومن بعدهم علماء العرب يطلقون على الابعاد التى من هذا النوع اسم « الابعاد اللحنية » ٠

لقد اهتم علماء الموسيقى فى القديم ببحث أمر تآلف الاصوات الموسيقية وبدرس أحوال تآخيها ، وكان لهم فى ذلك نظريات ومذاهب مختلفة شتى يعتمد بعضها أصولا رياضية وفلسفية محضة وكانت الرياضيات عند القدماء بابا من أبواب الفلسفة ٠ ويعتمد بعضها التحسس والاختبار بالسماع ٠

وللفارابى وجهة نظر فى الموضوع تتفق ونظرية أصحاب الموسيقى فى عصرنا هذا ، فهو ينظر فى التئام الاصوات بعضها ببعض باعتبارها اما « مقترنة » واما « مرتبة » ، ويعنى بالاقتران اجتماع اثنين من الاصوات فى السمع ــ أو أكثر ــ فى آن واحد ، ويعنى بالترتيب ورود الاصوات للسمع بالتتالى ، أى فى آنات متعاقبة ، ويميز الاقترانات حالة عرضها على السمع الى « كمالات » و « لاكمالات » ، وكذلك التراتيب فهى اما كمالات واما لاكمالات ويسمى كمال الاقتران : «اتفاق» و خلافه «تنافر» وكمال الترتيب « ملاءمة » وخلافه « منافرة » ويقابل الاتفاق فى اصطلاح الموسيقى الغربية كلمة «أكور» (accord) ويقابل الملاءمة كلمة «كنسونانس» (Consonnance)

ويشبه الفارابى اتفاق الاصوات باقتران الالوان ومزج بعضها ببعض ويشبه الملاءمة بمقارنة الالوان فى التزاويق وكمال تتالى الاطعمة على حاسة الذوق (3) .

ومن علماء الموسيقى من كان يرى أن من الابعاد ما يتالف طرفاه فى حالة المزج وفى حالة الاتلاء على السواء ومنها ما لا يتالف طرفاه الا فى حالة الاتلاء فقط ويشركهم هذا الرأى علماء الموسيقى من أهل الغرب فى هذا العصر ، وكان ابن سينا يعارض هذا الرأى بقوله : «... ان (الابعاد) المتفقات تتفق مزجا وتتفق تتاليا ، لان سبب الاتفاق هو نسبة من النسب فحيث وجدت كانت سببا كان وجودها مزجاً او اتلاء ... » (4)

ومن الملائمات ما هى طبيعية ، وهى ملاءمة نسبة الضعف وهى الملاءمة المطلقة الكاملة التامة ـ يليها ملاءمة نسبة 3/2 ثم ملاءمة نسبة 4/3 .

وأما ملاءمات الابعاد الصغار المعروفة بالابعاد اللحنية فهى ليست طبيعية فى ذاتها على أن التعود ينزل بعضها منزلة الطبيعة عند بعض الامم وفى بعض العصور دون الامم ودون العصور الاخر ، اذ هذا النوع من الملاءمة انما هو معرض لتغيير شعور السمع وتغيير حكم النفس مع مر الزمن وحسب تغيير البيئة وتاثرها بالعوامل الخارجية .

ولا يحصل الشعور بملاءمة ما هو ليس ملائماً بطبيعته الا بالتروض المستمر وانه لمن الصعب بل من المستحيل حمل الاسماع والانفس على الاقلاع عما تعودته من المحسوسات وعلى استحسان ما يفرض عليها فجأة ، قال الفارابى فى هذا الموضوع : « ... ليس سبيل الطبيعية من الالحان سبيل الشرائع والسنن التى ربما حمل الناس عليها أو أكثرهم فى بعض الازمان فيتبع بعضهم فيها بعضا ... » (5)

---

(3) الفارابى : كتاب الموسيقى الكبير : مخطوط جامعة لايدن عدد 1427 انظر ترجمة ايرلانجى الفرنسية فى الموسيقى العربية ج 1 باريس 1930
(4) ابن سينا : كتاب الشفاء مخطوط معهد الهند بلندن عدد 1811 الورقة 155 خلف .
ترجمة ايرلانجى الفرنسية فى الموسيقى العربية ج 2 باريس 1935 ص 119
(5) الفارابى : كتاب الموسيقى الكبير مخطوط لايدن عدد 1427 ص 22 انظر ترجمة ايرلانجى الفرنسية فى الموسيقى العربية ج 1 ص 69 باريس 1930

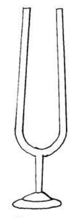
القوى في سلم الاصوات

من أجل ظاهرة الاتفاق المطلق فان الصوت والذى يناسبه نسبة الضعف اذا سمعنا بتتال يوهم السامع وكان الثانى مثل الاول أو هو بذاته ، ويعبر ارباب صناعة الموسيقى فى بلداننا العربية من أهل زماننا على هذا «التجاوب» بين الصوتين بان الصوت الثانى هو «جواب» الاول ، وبان الاول هو «قرار» الثانى ، لان المنتقل من أى صوت الى ما هو اعلى منه بالتدرج يشعر وكانه لحق بصوت مثل الاول لما يصل الى ما يناسبه نسبة الضعف ، كما أن المنحدر من أى صوت الى ما دونه فى الطبقة باستمرار وتدرج يشعر وكأن الحركة استقرت وانقطعت لما يصل الى ما يناسب الصوت الاول نسبة النصف ·

فكل طبقة صوتية تحدث – اذن – بين أى صوت وجوابه ألا ولها نظيرة مقابلة لها بين الجواب وجواب الجواب ، وأخرى جواب الجواب وجوابه وهكذا باطراد ·

وكذلك بين كل صوت وقراره ، وبين القرار وقرار القرار وهكذا باطراد بحيث انه لو فرضنا لحنا ما مؤلفا منطبقات صوتيةمعينة ثمأخذنا أجوبةتلكم الطبقات أو قراراتها لم يتغير اللحن فى السمع من حيث صيغته اللحنية · أى من حيث تناسب أصواته بعضها مع بعض – ولا يختلف وقعه وأثره فى نفس المستمع اذ لا يشعر المستمع بشىء تغير بسبب ابدال أصوات اللحن باجوبتها أو بقراراتها سوى ارتفاع او انخفاض لحق أصوات اللحن برمته بدون أن تتغير رسوم صورته وشكل بنيته ·

Diapason



Dynamis

انه لبين اذن أن جميع «القوى» أى جميع مراتب الاصوات المختلفة كيفا فى السمع – توجد منحصرة بين صوتين يتناسبان نسبة الضعف ، ولهذا السبب اطلق علماء العرب على البعد الصوتى الذى نسبة طرفيه هذه النسبة اسم «الذى بالكل» أو «ذى الكل» (6) وقد نقلوه بالترجمة اللفظية عن العبارة اليونانية القديمة « ديابسون » ويقابل هذا الاسم فى اصطلاح ارباب الصناعة الموسيقية عندنا اليوم فى جميع البلدان العربية اسم «ديوان» وهو الذى يؤدى المعنى ذاته ، وكذلك كلمة «قوى» (جمع قوة) التى استعملناها فى طالع هذه الفقرة فقد نقلها علماء العرب بالترجمة عن اليونانية :

(6) الفارابى : كتاب الموسيقى العربية مخطوط جامعة لايدن عدد 1427 ص 14 انظر ترجمة ايرلانجى الفرنسية فى الموسيقى العربية ج 1 ص 40 باريس 1930

السلم العام الاساسي

لو نظرنا في القوى ــ أي في طبقات الاصوات ــ التي يشملها البعد (ذو الكل) من الوجهة النظرية البحتة وعلى وجه العموم نجد انه لا يحصرها عدد، لان عددها هو مجموع الاحاد التي يتركب منهـا الفرق بين عـددي ذبذبات طرفي البعد ،والفرق المذكور لا يحصر نظريا بعدد ما ، لاننا كلما حددناه في عدد أمكننا تضعيف ذلكم العدد بتضعيف عـددي التردد بدون أن يحصـل عن ذلك تغيير ما في نسبة طرفي البعد ، ويقابل كل زيادة في آحاد التفاوت زيادة مماثلة في عدد مراتب الطبقات .

وأما من الوجهة العملية ــ أي اذا اعتبرنا قدرة السمع على ادراك تفاوت الطبقات القريبة وعلى الشعور به وتقديره ــ فان عدد مراتب الاصوات متناه قابل للحصر والتعيين ،

وعلماء الموسيقى عند سائر الامم يعتنون بحصر جميع «القوى» المستعملة في جميع أنواع الالحان عندهم المتجمعة بين طرفي البعد ذي الكل ، ويطلقون على مجموعها متتالية حسب مراتب طبقاتها اسم « السلم العام » .

الجمـــوع

لا تستعمل درجات سلم الاصوات الموسيقية العام متجمعة جميعا في لحن واحد ، ولا أي عدد منها اتفق ، بل ينتخب الملحن من بينها عددا معينا حسب قواعد ومقاييس قررتها خبرة الصناع المعلمين ، فحال الملحن في ذلك شبيه بحال المزوق الفنان فقد يجتمع لديه اصباغ عديدة متنوعة الا انه لا يستعملها جميعا في لوحة واحدة بل يختار من بينها ألوانا معينة لاخراج كل نوع معين من انواع التزاويق .

ولم يكن رائد الملحنين الاول مبتكري الصيغ اللحنية المستعملة في مختلف العصور وعند امة من الامم المختلفة سوى تجانس طبقات الاصوات المنتخبـة لتكون مدار اللحـن ومسانـدة بعضهـا لبعض في التأليف وتلـذذ السمـع لملائمتها .

وكل جماعة من الاصوات الموسيقية تنتخب لاخراج نوع معين من الالحان كان علماء الموسيقى العرب الاولون يسمونها « جمعـا » مؤدين بذلـك معنى اللفظة اليونانية القديمة « سوستاما » (Sustama)

وقد أخذ الافرنج في العصور الوسطى عن العرب اسم (جمـع) وكانـوا يكتبونه وينطقون به (كاموت) (Gamut) بالكاف الفارسيـة ــ باللاتينية ــ

وكانت لغة العلم عندهم ، واشتق الفرنسيون من الصيغة اللاتينية هذه كلمة «كام» (Gamme) يستعملونها في معنى أصلها العربي ٠

ويقابل اسم «الجمع» في اصطلاح أرباب صناعة الموسيقى عندنا اليوم في بلادنا العربية اسم « ديوان »

الثمانية

تختلف أنواع الجموع بعضها عن بعض باختلاف منازل طبقات الاصوات المجتمعة بين طرفيها ومراتبها في مدرج الاصوات الموسيقية العام ٠ على أن عدد المنازل لا يزيد على الثمانية بين طرفي البعد ذي الكل ومن جملتها الطرفان ، وهذا في جميع الجموع مهما تنوعت وتباينت أوضاع قسمة البعد ذي الكل الى أبعاد صغار ، هكذا اثبتت التجربة في موسيقى جميع الامم على وجه العموم ، ولا ينقص عدد المنازل في نطاق البعد ذي الكل عن الثمانية الا في القليل النادر من الالحان وذلك بالاخص في موسيقى بعض الامم المتمسكة بتقاليد فنية عتيقة جدا رغم تقدمها في الحضارة مثل أهل الصين وبعض شعوب الهند وفي موسيقى الامم المتأخرة في الحضارة مثل زنوج افريقيا واستراليا وسكان بعض الجزر في المحيط الهادي ٠

ومن أجل هذا المبدأ الجاري مجرى القاعدة المطردة اردف علماء العرب تسمية البعد ذي الكل باسم « ذي الثمانية » ٠ ويقابل هذا الاسم الاخير في الموسيقى الغربية اليوم اسم « اكتاف » (Octave)

واما ارباب الصناعة في بلادنا العربية فهم لا يستعملون سوى اسم « ديوان » يطلقونه حسب الحاجة تارة على البعد الفاصل بين أي صوت و « جوابه » أو بينه و « قراره » وتارة على كل مجموعة مكونة من سبعة ابعاد صغار معينة يكتنفها طرفا البعد ذي الكل أو ذي الثمانية ٠

∴

تعيين التردد في الموسيقى

صوت المعيار :

ان اهم ما يشغل بال المغني أو العازف المنفرد هو اخراج الاصوات على نسبها المعينة لها في الجمع الذي ينويه ويقصده ، ولا يهمه ان كانت الاصوات ناشئة عن عدد ما من أعداد التردد أو غيره ما دام هو يحافظ على تناسب الاصوات بعضها مع بعض تناسبها المعين لها في الجمع الذي اختاره ،

على أنه اذا تعدد المغنون أو العازفون بالآلات المصوتة واشتركوا في

تأدية اللحن الواحد وجب توحيد الاصوات المتساوقة اجتنابا للضوضاء والبلبلة : فيتخذ أفراد الجوقة رائدا لهم صوت احدى الحناجر البشرية المشاركة فى الغناء أو صوت احدى الآلات المتساوقة فى العزف • هكذا يجرى العمل عادة فى جوقات الطرب الشرقية وفى بعض الاحيان فى الجوقات الغربية - خصوصا اذا كانت الآلات المستعملة من ذوات الاوتار •

وقد اصطلح علماء الفيزيا فى الغرب على «جمع» معين يعينون بالنسبة لمنازله طبقات أصوات الاجسام التى يختبرون اهتزازاتها ، ويعتمد هذا الجمع المعين المشرفون على صنع الآلات الموسيقية ذوات الاصوات الثابتة على تردد معين قار ، فاختاروا لذلك جمعا يعرف عند علماء الموسيقى بالجمع « الطبيعى » تتعاقب طبقات أصواته الثمانية والابعاد السبعة المتخللة لها على النسب الاتى بيانها نرسمها من اليسار الى اليمين حسب اتجاه الكتابة الموسيقية عندهم :

$$\frac{2}{1} = \frac{10}{9} \times \frac{16}{15} \times \frac{9}{8} \times \frac{9}{8} \times \frac{10}{9} \times \frac{16}{15}$$

ثم انهم حددوا منطقة الاصوات المستعملة فى الموسيقى بين حد أدنى من جانب الثقل وحد اقصى من جانب الحدة • وجعلوا الدواوين تتعاقب بين هذين الحدين على نظام واحد •

واصطلحوا على علامات يمثلون بها أصوات الدواوين بطريقة تعرف عندهم بالمدرج • سموها بهذا الاسم لانها تقتضى استعمال خمسة أسطر أفقية متوازية على مسافات متساوية ترسم علامات الاصوات فوقها وفيما بينها وهى على شكل حلق مستديرة أو بيضوية • ويزاد فوق الاسطر الخمسة وتحتها خطوط قصيرة كلما امتدت مجموعة الاصوات من جانب الحدة أو من جانب الثقل •

ثم انهم اصطلحوا على اسماء اطلقوها على السبع طبقات الاول من ديوان واحد على أن يكرروا الاسم الاول فى تسمية الطبقة الثامنة لانها مماثلة للاول كيفا فى السمع وكأنها هى :

وقد اختار الانكلوسكسونيون السبعة أحرف الاول من حروف الهجاء عندهم للدلالة نطقا على مراتب أصوات الديوان : نرسمها من اليسار الى اليمين هكذا :

A B C D E F G

وقد اختار اللاتينيون (المتكلمون بلغة مشتقة عن اللتينية القديمة) سبعة

مقاطع لفظية اقتبسوها من بداية السبعة أبيات الاول من نشيد مقدس لهم (المقتبس هو الراهب قي دارازو الذى كان يعيش فى القرن العاشر ميلادى ، والنشيد المقتبس منه هو نشيد القديس يوحنا المعمدان) وهذه هى المقاطع السبعة المذكورة :

Do Ré Mi Fa Sol La Si

ولما كانت اسماء مراتب طبقات الاصوات تتكرر فى جميع الدواوين فاذا هم أرادوا تعيين الديوان المحيط بأى صوت من الاصوات أضافوا الى اسم مرتبة الصوت دليلا عدديا يدل ع لىمرتبة الديوان المعنى بالنسبة للديوان الوسط . ينطقون بالدليل عند التلفظ باسم مرتبة الصوت ويرسمونه بجانب الاسم فى أعلى يمناه لما يكتبون .

وقد اصطلحوا على أن يكون الصوت الناتج عن 2/3 و 426 ذبذبة دورية فى الثانية الواحدة الصوت المعيار الذى تقاس عليه جميع الاصوات فى الموسيقى ، وجعلوه يقابل المرتبة الصوتية المعلم عليها بحرف « a » او بعلامة « لا » فى الديوان الثالث وهو لديوان الوسط ، وفى سنة 1953 أبرموا اتفاقا دوليا على أن تكون لعلامة « لا 3 » مقابلة لذبذبة تقدر بادوار 440 فى الثانية .

شوكة الرنين تعطى الصوت المعيار :

وتوجد ادوات صنعت خصيصا لتحدث الصوت المعيار عند الحاجة والطلب يعدل عليها المغنون أصوات حناجرهم وأصحاب الآلات الوترية أوتار آلاتهم يعالجونها بالحرق وبالارخاء حتى تعطيهم مثل الصوت المعيار فى الوتر المعد لذلك عند اطلاقه او عند حجزه فى المكان المعهود .

والادوات المصوتة بصوت المعيار صنفان : صنف مثل الصفارة وصنف هو شوكة رنانة ذات فرعين .

تصنع الشوكة الرنانة من قضيب من الفولاذ الجيد الرفيع مربع المقطع أو مستطيله ، يحدب القضيب من منتصفه ويقرب طرفاه من بعضهما بعض حتى يتوازى شطراه ، وقد يقرب الطرفان أكثر من ذلك ، وقد يكون للشوكة قاعدة يثبت فيها من عنقها .

ولتصوت شوكة صوت المعيار يقرع أحد فرعيها بأى جسم صلب كان أو يجر عليها قوس كمانجة ، أو يشد الطرفين بين السبابة والابهام ويضغط عليهما بعنف حتى يقتربا من بعضهما بعضثم يطلقان بسرعة أو يدخل بين طرفى الفرعين قضيب اسطوانى يكون قطره أوسع بقليل من الفرجة التى بين الفرعين ثم يخرج القضيب بعنف .

وتعرف شوكة صوت المعيار عند الافرنج باسم « ديابزون » وقد سبق أن ذكرنا أن هاته اللفظة يونانية كان اليونان الاقدمون يطلقونها اسما على البعد الصوتى الذى نسبة طرفيه نسبة الضعف لاشتماله على جميع الاصوات اشتمالا بالقوة ، وقد أخذ عنهم العرب هذا الاسم وعربوه بعبارة «ذى الكل» واستعملوها فى معناها اليونانى . (يتبع)

ندوة القراء

النـقــــــد الادبـــــــي

بقلم : نور الدين بوكراع

معنى النقد اللغوي اصل للنقـد الادبي يقـال نقد الدراهم وانتقـدهـا اذا ميز جيـدها من رديئهـا فالاستعمـال الادبي اذن استعمـال مجازي. وكما ان الذي ينتقد الفضة والذهب يجب ان يكون خبيرا فكذلك من ينتقد الادب يجب ان يكون به وبمذاهبه بصيرا وكذلك من ينتقد الاخلاق او الافكار او السياسة او المجتمع...

قـال ابن سلام (طبقـات الشعراء) : وللشعر صناعة وثقافة يعرفهـا اهـل العلم كسـائر اصناف العلم والصناعـات منها ما تثقفه العين ومنها ما تثقفـه الاذن ومنهـا ما تثقفـه اليد ومنهـا ما يثقفـه اللسـان من ذلك اللؤلؤ والياقـوت لا يعرف بصفـة ولا وزن دون المعـاينة ممـن يبصره، من ذلك الجهبذة بالـدينـار والـدرهم لا تعـرف جودتهمـا بلون ولا مس ولا طراز ولا حس ولا صفـة، ويعرفـه الناقد عنـد المعـاينـة فيعـرف بهرجهـا وزائفهـا ومنـه البصر بغريب النخـل، والبصر بأنـواع المتـاع وضروبـه واختـلاف بـلاده وتشابـه لونه ومسـه وذرعـه حتى يضـاف كـل صنف منهـا الى بلـده الذي خـرج منـه الخ كلامـه (1)...)

واذا لم يـكن الناقـد الادبي خبيـرا كمـا يجب ان يـكون، فقد يفهم النص على غيـر وجهـه واذا فسـدت مقـدمـات البحث فسـدت على الغالب نتـائجـه وكثيرا مـا نجد الـذيـن شانهم كذلك يخطئون من وجـوه :

1) فقد يستعيـرون فهم غيرهم فيسيـرون على سننهم ويقولـون بارائهم ويطمئنـون بعد الى متجههم. وقد يـكون السابقون على خطأ مبين في حكمهم،

2) وقد لا يفهمـون ما عناه الأولـون فيحملـــون كلامهم ما لا

---

(1) طبقات الشعراء لابن سلام ص 6 و 7

يحمله ويشملونه ما لا يشمله وكثيرا ما يصدر الخطأ عن تكبير الدائرة بأفهام قاصرة لا تحكم تقدير مواقع التقدم في طرق البحث.

3) وقد يعتمدون على الباحثين الغربيين في الادب العربي آخذين بأقوالهم كما يؤخذ الوحي الموحى وليست العصمة لشرقي ولا لغربي ولو كان عليما خبيرا، وللمستشرقين في فهم الادب العربي مزالق لسنا في مواطن اثباتها (2) وما اكثر ما يشكون للشك ويتوهمون للتوهم فيخلقون العثرات في السبيل اللاحب ويعلنون الظفر باليسير الواضح وللعربية ذوقها الدقيق الذي يحتاج الى مراس لا الى ترديد اقوال الناس او القادحين.

4) وقد يتخذون الادب العربي نفسه قدوة لهم فيسألون عن مثل جماله وألوانه واسراره في الادب العربي ولا يتساءلون عن مثل جمال الادب العربي وألوانه واسراره من الادب الغربي ليعرفوا خطاهم في التاسي والاقتداء، فما كان الادب الا ابن بيئته والهامها وتجاربها ولا تستوي انغام البيان وانغام الكمان. ولذلك لا يسيغ الادب العربي مقاييس النقد الادبي الغربية دائما لان لفنونها امكنتها وازمنتها وتصويرها وتعبيرها. واول ما يحتاج اليه النقد (الذاتية) مقرونة بالاخلاص فإذا اختلفت طريقة للنقد عن طريقة فلكل ناقد وما يختار :

فالناقد يجب ان يصدر عن رايه ذاته ويجب ان يكون هذا الرأى مستجمعا ما ينبغي ان يستجمعه حتى يتصدى لجرح النصوص وتعديلها وتقريظها وتحكيمها.

وقديما قال أبو الطيب :

وكم من عائب قولا صحيحا ... وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الافهام منه ... على قدر القرائح والعلوم

وحديثا قال امين الدين تقي الدين :

ان الجهول اذا قلدته قلما ... مثل الجبان اذا قلدته خذما

وقد يعجز الشاعر عن نقد الشعر والناثر عن نقد النثر فليس بالامر اليسير ان يجتمع لامرىء عمق النظر ورقة الشعور ودقة الملاحظة

(2) راجع مقدمة النقد التحليلي للاستاذ الغمراوى

وسلامة الذوق وغزارة المعرفة والبعد عن الاهواء واذا لم يكن الناقد بعيدا عن هواه كان محاربا حاسدا لامصلحا ناقدا ولانه مريض الخلق يشفي الطعن نفسه ويذهب غيظها وما اكثر من كان شأنهم كذلك ممن يريدون ان يرتفعوا بوضعهم من لا ذنب لهم الا الإحسان ويشتهروا ولو بقول السباب والافتراء والبهتان.

وقد يبتلى بهذا المرض مرض النقد بالافتراء اناس بلغوا مكانا عليا في مجتمعهم، فيخدع باقوالهم من لم يعرف كيف صاروا الى ما هم فيه، ولم يقف على ما يتجهون اليه وما ينطوون عليه من فساد المقاصد وسفساف المآرب.

فليس من اليسير وجود اولائك النقاد الجبابرة الاعلام العقليين المخلصين فإذا وجدنا من سواهم اناسا لا نحصيهم عدا تنشر في الصحف او الكتب ملفقاتهم التي سموها نقدا فانهم بالاطفال العابثين اشبه منهم بالناقدين الصادقين. وكثيرا ما يلح الاطفال على ابائهم في طلب الاقلام والالواح ثم لا يكون عليهم جناح وهم يهرفون ولا يعرفون ويؤثرون في صفحاتهم ولا يسطرون. وانما اللوم على من يظن ان ما تركوه كتاب وما ادعوه جواب ولِنَقْدِ الافتراء ضرر كبير وخطر عظيم في المجتمع لانه كثيرا ما يرهب ذووه بسلاطة اقلامهم من لا يقوى على الدفاع فيرتد مخذ ولا مدحورا.

اما (النقد الصادق فإنه يفيد الادباء الناشئين ويفيد القراء المفيدين ويفيد الادب نفسه. فلننظر في بيان ذلك.

اما انه يفيد الادباء فمن الوجوه الاتية :

اولها : ان يفسر آثارهم ويبين الاصول اللازمة لفهمها والوجوه التي تفهم عليها وهو بذلك ييسر قراءتها على الناس ويصل بينهم وبين الشعراء والكتاب الذين قد لا يعرفون لو لا النقاد. وبهذا تتمكن منزلتهم من النفوس ويشتركون في بناء الحياة الاجتماعية مؤثرين ومتأثرين وكثيرا ما يكتب لهم بذلك الخلود وكثيرا ما نرى في العصور الادبية كتابا وشعراء بقوا مغمورين احياء وامواتا حتى اتيح لهم النقد فطفوا على لجج الحياة ونشرت آثارهم واستانفوا عمرا جديدا خصبا خاليا من الافات ولا تزال متاحف الكتب ملأى بشكل نافع ينتظر المنصفين من النقاد ليدلوا عليه او يعنوا بنشره فينشر معه صاحبه.

ثانيها : ان النقد يقوم الادباء فهو الذي ينظر في مقدار ما وفقوا في الوصف او القصص او المقال او الخطابة سواء أكان ذلك من حيث التعبير الصادق لذاته ام من حيث تأثيره في الحياة والإحياء فإن كانوا مخطئين دلهم فيه الى الخطأ وشرع الصواب وان كانوا مصيبين روج لهم ووطد طريقتهم ورسم لهم مثلا كاملة واخذ بايديهم. لهذا كان النقد المنصف هدى ورشادا وكان خاضعا لا صول مقررة ترضي الناقد والكاتب في اغلب الاحيان.

ثالثها : انه يدل الادباء على رأي الناس فيهم ويلفتهم الى تقدير هؤلاء القراء ومراعاتهم حين الانشاء الادبي والى التخفيف من غلوائهم ليكونوا مع الناس في الف ونحوه، فيتحقق بذلك التعاون الثقافي والتهذيبي ويدخل الادب الى الحياة ينير سبلها ويخفف من شقائها وينشر على الناس جمالها.

والنقد الادبي يفيد القراء من عدة نواح :

الاولى : انه يقرب اليهم الاثار الادبية كما مرّ ويساعدهم على فهمها وقدرها ...الخ

الثانية : ان النقد يرسم للقراء طرق القراءة النافعة لان الناقد يكون اكثر مرانة واعمق فهما واقدر على التفرقة بين انواع الادب وعلى تحليل نصوصه...الخ

الثالثة : ان النقد يساعد القراء على انتقاء الكتب التي تتصل بدراساتهم او تكون الذ لهم وانفع فيعرض عليهم خلاصات لها كافية ويبين لهم نهجها ونواحي الكمال او القصور فيها... الخ

والادب نفسه يفيد من النقد امورا هامة :

1) منها انه يقوى ويتقدم ما دام النقاد يتعقبون الادباء فيشتدّ التنافس بين هؤلاء... الخ.

2) والنقد الخالق لا يقف عند بيان المحاسن والمساوى وانما يتعدى ذلك الى اقتراح ما ينهض بالادب ويوسع في افاقه من فنون جديدة او اساليب ممتعة او افكار تخصب الادب وتزيد ثروته...الخ

3) (والنقد يكثر انصار الادب ويبسط سلطانه على النفوس ويبين صلاته المتعددة بالزمان والمكان والافراد ويبين قيمته الفنية ويفسح له بين الفنون والعلوم ... الخ) (3)

(3) اصول النقد الادبي للاستاذ أحمد الشايب (ص 170 ـ 172) مع بعض الحذف اختصارا

والنقد في ادبنا العربي قديم عرفته الجاهلية وعرفه الاسلام ولو عاش طويلا مختلطا بالبلاغة وهي تسير في طريقها الى مقاصدها.

ففي الجاهلية نجد ادبا قويا جميلا ارقاه الشعر يصور بيئته واهلها اجمل تصوير ويعبر عن خلجات النفوس ونبضات القلوب وهمسات الضمائر ولمحات الاماني بل قد نجد في الشعر الجاهلي من الصور الممتعة ما هو اجمل من بيئته القاحلة يدرك ذلك كل من زار البيئة العربية وعرف من قبل او من بعد الشعر العربي المتين.

ففي بيئة الفيافي والشيح والقيصوم انتهى الشعر الى انسجام وائتلاف كما في المقدمات وشعر عشرات من نابغي الجاهلية الذين ادركوا الاسلام او لم يدركوه. وما كان هذا النضج والإنسجام والائتلاف الا بعد شعور صادق، ولقد كان يبدو النقد في اسواق للبلاغة وغيرها يقيمها العرب فيتقدم لنيل شهادتها من يثق بنفسه كل الوثوق فيعد قصيدته — او اطروحته — وكان النابغة الذبياني محكما تضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ فتأتيه الشعراء تعرض عليه اشعارها ولسنا ندعي بهذا بلوغ النقد غايته ولكنه كان دعوة للتكامل الادبي.

وكان النقد الادبي من اهم العوامل في ايجاد علم البلاغة وذلك ان الملاحظات والاحكام النقدية اقامت جماعة من العلماء فأحالوها قوانين واصولا ودونوها في فصول مختلطة بالنقد حينا ومنفصلة اخيرا.

حتى كانت اساسا صالحا لتكوين قواعد بلاغية قامت بوظيفتها فيما مضى، وهي الآن آخذة في الاكتمال لعلها تنهض بالواجب عليها منذ الآن.

ومن يقرأ المؤلفين في هذا الباب من عهد الجاحظ المتوفى سنة 255 هـ. وابن المعتز 296 هـ. وقدامة 310 هـ. والعسكري 359 هـ. وعبد القاهر الجرجاني 471 هـ. والثعالبي 419 هـ. وابن رشيق 463 هـ. الى الزمخشري 538 هـ. والسكاكي 626 هـ. يتراءى له ما قلنا من ان النقد كان عاملا هاما في هذا التقنين البياني، وان هذين العلمين — او الفنين — قد عاشا مختلطين لم ينفصلا الا بعد جهد عنيف. وهذا الاختلاط بين مسائلهما طبعي ما دام موضوعهما واحدا هو النصوص الادبية من حيث توافر الجمال والتاثير فالبلاغة ترشدنا بقواعدها الى الطرق والوسائل التي تجعل كلامنا نافعا مؤثرا. والنقد يضع لنا المقاييس العامة التي نقدر بها ما في الكلام من فائدة او قوة او جمال (4).

(4) الاسلوب للاستاذ أحمد الشايب ص 655

ولقد كان للنضال الادبي بين الاسلام وشعرائه كحسان وابن رواحة والشرك وشعرائه ولمباحث اعجاز القرءان ولا ثار كبار الشعراء والكتاب الذين لفتوا الجمهور اليهم كان لذلك اثر عظيم في وضع قواعد النقد الادبي من ذلك ما نشاهده في طبقات الشعراء لابن سلام من نفاذ بصر ودقة ملاحظة على الرغم من انه من علماء اواخر القرن الثاني واوائل القرن الثالث.

وقد استقرت طريقة المتقدمين في النقد على ما يتصل بالالفاظ والمعاني. فاسمع الجاحظ مثلا ينتقد بيتين من الشعر انتقادا لفظيا :

لا تحسبن الموت موت البلى وانما الموت سؤال الرجال
كلا هما موت ولكن ذا افظع من ذاك لذل السؤال

وما نحسب الجاحظ لا يكترث بالمعاني ولكنه ياخذها مأخذ الألفاظ

واذا وثبنا الى عصر ابن الاثير (558 — 627) وقرأنا في كتابه المثل السائر قوله في الالفاظ : «فاعلم ان الالفاظ تجري من السمع مجرى الاشخاص من البصر. فالالفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار، والالفاظ الرقيقة تتخيل كاشخاص ذوي دماثة ولين واخلاق ولطافة مزاج».

اذا قرأنا هذه الفقرات وغيرها من كتاب المثل السائر كالفقرة المتعلقة بخصائص بعض الصيغ أو الفقرة المتعلقة بالابداع في المعاني ندرك ان من المتقدمين من كانت لهم في النصوص الادبية نظرات صادقات وملاحظات مصيبات واحساس عميق في ألفاظها ومعانيها وما اكثر ما نجد ذلك كله منشورا في كتب الادب شعره ونثره وقد تجد بعضها ما يرتقي فيبلغ درجة القاعدة او السنة التي تطبق فلا تخطئ وتحكم فلا يعترض على صوابها.

وبعد ... فإن الموضوع يتطلب المزيد من البحث واستكشاف الكثير من العناصر وعلى الناقد ان يكون بصيرا حتى لا ينقض حكمه.

نور الدين بوكراع

مطالعات

من وحي الثورة الجزائرية

تاليف الجنيدي خليفة

252 صفحة — طبع بيروت 1963

الحديث عن أدبنا العربي الحديث في الجزائر هو في الوقت ذاته حديث عن الثورة الجزائرية المجيدة التي اعادت للشعب كيانه وحريته وكرامته. وفي اعتقادي ان هناك اكثر من سبب وجيه يدفعنا دفعا عنيفا الى البحث عن علاقة الادب بالثورة، سواء كان ذلك على الصعيد المحلي او الإنساني، في خلال السنوات العشر الاخيرة.

انا على يقين، ولعل غيري يشاركني هذا الرأي، من انه لو لم تقم الثورة، عارمة شاملة، لما كان لنا اليوم ادب ثوري نعتز به ونفخر، وان كان لا يزال متخلفا عن مستوى الثورة، من حيث هي نظام وعقيدة وحياة.

الواقع انه كان المفروض ان تكون الثورة وليدة الادب، ولكن العكس هو الذى حدث. ولست، شخصيا، اظن ان هناك ما يدعونا الى لوم الادباء والشعراء الذين عاشوا قبل قيام الثورة المباركة، لان ما لاقوه من بشاعة الحياة وقسوة الزمن ومحنة الارهاب الذى سلطه عليهم الاستعمار الغاشم كفيل بأن يغفر لهم عدم التعبير بشجاعة عن المشاعر التي كانت تمور في اعماقهم، فقد حكم عليهم ان يكتفوا بالتلميح، ان وجد، دون التصريح بها والاعراب عنها.

بين يدى الآن كتاب جزائرى لمؤلف جزائرى، ولعل اقل ما يقال عن الكتاب انه احدى ثمرات الثورة الناضجة التي تظهر لنا مدى تقدم الفكر الجزائري واهتمامه بالمشاكل التي تشغل وعى الانسان من حيث هو انسان يرفض كل انواع الظلم والبغي والاستعباد. ثم انه يضعنا وجها لوجه امام شاب ذى مواهب واعدة وامكانيات ضخمة تؤهله لاحتلال مكانة مرموقة في ميدان الفكر الجزائري الحديث.

فهو يحاول ان يكشف عالما خاصا من خلال تجاربه الذاتية. وعندى

ان اجدر الاداب بالخلود هو ذلك الادب الذى يحمل طابعا شخصيا نطل من خلاله على عوالم رحبة تتصل بالحياة والطبيعة والوجود والانسان.

يبدو لي ان المؤلف، وقد اكون مخطئا في هذا الزعم، لاني، نظرا لبعدي عن الوطن منذ احدى عشرة سنة، وان كنت اعيش معه بافكاري وعواطفي، لم اطلع على كل نتاج ادبائنا الشبان في فترة ما بعد الثورة من اشعار وقصص ومسرحيات وبحوث يبدو لي ان الاخ الجنيدي خليفة يمتاز عن غيره بعمق التفكير ودقة البحث وبراعة التحليل وصدق التجربة، وخاصة في بحوثه الفلسفية وتأملاته الفكرية. هذا زيادة على ان تفهمه لحقيقة الثورة وتمثله لمضمونها ومعطياتها كان وعيا وهضما اكثر منه تحمسا وامتنانا.

والكتاب بعد يحتوى على يوميات وقصص ورسائل وتأملات فلسفية. ولعل اجدرها بالعناية والدرس هي اليوميات. فهذه الانطباعات التي دونها الكاتب تقدم لنا صورة جلية صادقة عن الظروف التي هيأت الشعب للخروج من العزلة التي فرضت عليه منذ عشرات السنين ففاجأ المستعمر بثورته التي قضت على الصراع الحزبي الذي كان يسود صفوف القيادة السياسية ووحدت الكلمة وحددت الهدف. كما انها تبين لنا مدى تعلق الطالب بثورة بلاده وانسجامه معها، رغم، ما يفصله عنها من حواجز وحدود وقيود. واني لاتساءل من منا نحن الطلاب الجزائريين آنذاك من لم يشعر بالرأس يرتفع... عندما حملت اليه الانباء اندلاع الثورة في وطنه ولم يحاول في الحال تغيير بعض المعتقدات السائرة عن بلاده. ولست انسى تلك اللحظة التي اجتمعت فيها صدفة في طهران بشاعر عراقي وسألني عن البلد الذى انتمي اليه. وحين قلت له : "عربي من الجزائر... اجابني : "بلد عظيم، لا نكاد نسمع عنه شيئا. الا يقع في جعب (كعب) الهند ؟ !" فوجدتني اقول له بألم واعتزاز في آن واحد : لا يا سيدي. برأس الهند، لا بجعبه ! "

فهذا الطالب يعيش قضية بلاده بكل قوة، رغم انه لم يكن يملك سوى افراح صغيرة وذكريات بسيطة وقبلة غرامية اختطفها من بنت الجيران تحت كرمة، وقلبه مفعم بالخوف من المستقبل المجهول الذي ينتظره بعد تخرجه. ومع ان هذه اليوميات قد كتبت في تونس الشقيقة، فإنها تحدثنا عن الاوضاع الثقافية والسياسية والإجتماعية في الجزائر الثائرة.

اما القصص والرسائل فإنها لا تخرج عن الجو العام للكتاب، واني

لاجد لها في نفسي طعما خاصا لم اعهده فيما قرأت من قصص جزائرية. فهي باسلوبها وافكارها ومعانيها تصور لنا مشكلة من المشاكل التي تجابه الإنسان في وضع من اوضاعه الخاصة، وهو يعيش ايامه ولياليه تحت تأثير ملابسات معينة، تفرض عليه ان يتخذ موقفه تجاه قضية ما.

والتأملات الفلسفية بدورها تبحث في علاقة الإنسان بالطبيعة وعلاقته باخيه الإنسان وتاصل حنينه الى الوحدة التي تتيح له ممارسة حريته الكبرى. ولعل ايمان الاخ المؤلف بقيمة الإنسان هو الذى حدا به الى توضيح خصائص هذه الحرية واظهار مزاياها وتأكيد ملامحها معكل ما يتصل بها من قريب او بعيد.

لم اقصد بهذه الكلمة تقديم دراسة مفصلة عن الكتاب، كما انني لم ارد بها التعريف بالمؤلف، فالجنيدي خليفة معروف لدى قراء "الفكر" وغيرها من المجلات العربية، وانما قصدت الى الحديث عن الكتاب والاثر الذي تركه في نفسي كقارىء لا غير.

واذا كان لي من ملاحظة على الكتاب، فهي أن به كثيرا من الاخطاء، والحق ان ذلك ليس بغريب عن المطابع العربية. ان هناك اخطاء حتى في تواريخ اليوميات. فالمؤلف ينتقل بنا فجأة من سنة 54، وهو اليوم الخامس لاندلاع الثورة، الى سنة 62، ثم يعود بنا الى السنة التي بدأ منها. ولا اظن ان المؤلف قد فعل ذلك عمدا، على اعتبار ان اليوميات قد كتبت فيما بعد، لان وقت كتابتها – في نظري على الاقل – غير مهم، ففي وسع اديب اليوم ان يعود بذاكرته الى الوراء ليدون مشاعره عن الثورة وكانه يعيش ظروفها حقيقة. والغريب ان نفس الخطأ قد وقع عند نشر البعض منها في العدد 12 / 1962 في مجلة الآداب البيروتية.

ثم اني اجد بعض التراكيب، مثل الزمكان والشمفريقي وغيرهما، منافية لروح اللغة العربية واساليبها، ولعل لذلك علاقة بكتابه "نحو عربية افضل"، ولست اريد الحديث عنه هنا، فقد اعود اليه في فرصة اخرى.

وبالتالي فإني شخصيا كنت افضل ان تنشر التأملات الفلسفية على حدة، فمما لا شك فيه ان المؤلف سوف يكتب غيرها في وقت ما، لان الجفاف الذى تتسم به المقالات الفلسفية عادة، يحول دون استمتام المتعة الفنية التي نجدها عند قراءة اليوميات والقصص. وايا ما كان الامر فإني اهنىء الاخ على كتابه الرائع الذى تفضل باهدائه الى مع كتاب آخر. وارجو له، مخلصا، التوفيق في بحوثه العميقة وكتاباته الرصينة، فالجزائر في حاجة الى امثاله من رجال الادب، والفكر.

ابو العيد دودو

بريد القراء

المعذبون في الحب

قصة بقلم : البشير التلمودى

انهـا تعلم جيدا من ان شفيق عبد الجوّاد لم يرسل اليها رسالة ابدا. ولـكن رغم ذلك فقد علمت في قرارة نفسهـا، ان الرسالـة التي قدمهـا إليهـا موزع البريد منذ لحظـة... كانت منه...

– اليـك يـا سعـــاد...

– احسنت !...

– هذا احد المعجبين بك ولا شك ؟ على كل، فانـا سأتركك لقراءتها على انفـراد...

– أوه... لا.. انهـا رسالـة من احدى صديقـاتي...

قالت ذلك، وأسرعت بإخفاء الرسالـة في جيبهـــا.

في بلدة « قربص » السكـان على اتصال دائم. فقد كانوا مثل عائلـة كبيرة، يجمعـون كل صفـات الودّ ومقـومـات الجوار... من اجل ذلك ارادت سعـاد ان تخفي الحقيقـة عن موزع البريـد...

واصلت سعـــاد سيرهـا تريـد العودة الى البيت، فإذا بهـا تلتـقي وجها لوجه مع سيـدة متقدمة في السنّ...

– صبـاح الخير يا خالـة...

– صباح الخير يا ابنتي... أين أنت ذاهبـة ؟...

– الى البيـت...

– لقد رأيت موزع البريد يسلم اليـك رسالـة... أهي لك ؟

فالتفتت سعاد نحو المرأة وقد تغيرت ملامح وجهها وقالت لها في شيء من الغضب المكتوم :

— نعم... انها ... لي !...

فتقدمت المرأة منها أكثر وقالت :

— لم أكن اعلم ان لك اصدقاء خارج البلدة

فنظرت سعاد الى الارض قليلا ثم شدّت على فمها ابتسامة ذابلة وقالت :

— هذا صحيح... ولكن.. تعرفت عليه حديثا... منذ اسابيع فقط...

فغشت وجه العجوز سحابة صفراء من الوجوم والحزن، ونظرت الى اللاشيء ثم قالت في مرارة :

— ايه... لو تعلمين يا ابنتي، عندما رأيت موزع البريد يسلم لك الرسالة، مدى الحزن الذي ألمّ بقلبي... اجل، لقد تذكرت ابني حسن...

قالت ذلك وصمتت لحظات ثم همست :

— هل تذكرين عندما كان يرسل اليك كل يوم رسالة ؟

— نعم.. ثمّ انني لا ازال احتفظ برسائله حتى الآن...

فابتسمت العجوز ابتسامة ذابلة وقالت :

— اعرف...اعرف ذلك يا ابنتي ... انك لا تزالين مخلصة وفية للحب الذي جمعكما... لذلك انا احبّك كما لو كنت ابنتي الحقيقية...

فنظرت الفتاة الى العجوز، وقالت تطمئنها :

— وأنا ايضا احبّك يا خالتي...

واغرورقت عينا العجوز بالدّموع حين قالت في حزن :

— آه... يا سعاد... عندما أعود الى الماضي لارى الذكريات... أتمنى على السماء ان تعيد لي ابني الراحل، حتى أراه زوجا لك، وحتى أصبح جدّة... ولكن... ايه...

— لا تقلقي نفسك يا خالة بالذكريات الاليمة... لان ذلك يقلقك من جهة، ويعكر صفو أفراح الشباب المتطلع الى الحياة من جهة اخرى..

كان لصدى كلمات سعاد في عيني العجوز الاثر البالغ، فقد شعرت المرأة بالام في عروقها وبالدموع تراود أجفانها من جديد. وغشت وجهها الشاحب الهزيل مسحة من الاسى والحرمان... ولم تتكلم !... وأحست سعاد ذلك، فندمت على ما قالت أشدّ الندم... وزادت فغمرتها موجة من الاسف حين سمعت العجوز تخاطبها بعد صمت طويل قائلة :

– ماذا تقصدين يا سعاد ؟

– أوه... لا شيء... لا شيء... ثم... ثم ان موت حسن لهو من الاشياء المزعجة والخسارة الفادحة من دون شك...

قالت ذلك في حيرة كبيرة، وودّعت المرأة وعادت الى البيت كما لو كان شيطان يطاردها...

– « نعم... انه شيء مزعج. ان هاته المرأة الحزينة لا ترى فيّ سوى صورة الارملة الباكية... في حين ان من الحق ان أعيش شبابي واكون سعيدة... آه... يا الهي... »

وصمتت فجأة عن الهمس بهاته الكلمات حين سمعت أباها يخاطبها – وقد وصلت الى المنزل وأغلقت الباب بقوة وجنون – قائلا :

– ماذا حدث يا ابنتي؟اراك تلطمين الابواب بقوّة عجيبة...ماذاحدث؟

– آسفة يا ابي... ان اعصابي متوترة...

– ماذا حدث ؟

– لقد اصبحت خالتي جميلة تراقب جميع اعمالي، بدعوى انني كنت خطيبة ابنها الراحل أوه... هذا لا يطاق... هذا لا يطاق...

فقاطعها ابوها قائلا :

– هذا شيء طبيعي... ان حسن – رحمه الله – ابنها الوحيد... ولهذا فأنت تعتبرين بالنسبة لها، ذكرى حيّة للميت...

فنظرت سعاد الى ابيها طويلا وقالت :

– انا احب حسنا ، ولقد تألمت كثيرا لموته ! ولكن لا اريد ان اعيش وسط احزان الماضي كامل حياتي، فتقدم الاب وضم ابنته بكل قواه الى صدره في حنان وقال لها :

– اوه... مـاذا حدث لك يا عزيـزتي... ؟

قـال ذلك واشـار الى رأسهـــا الجميـل وقـال :

– لا شك ان وراء هذا الرأس الصغيـر، اشيـاء غريبة... أليس كذلك ؟

– انا لا أخفي عنك شيئـا يا أبي... ولـكن...

– ولـكن مـاذا ؟ ...

– ولـكن أشعر بصداع في رأسي وبألم في أعصابي...

– اذن، أنت في حاجة الى الرّاحة يا سعـاد... ثم الى بعض المـلاهي...

– أوه... أبي... أنت تسخـر مني...

– أبـدا... أبـدا... أبـدا...

– تصبـح على خيـر !...

– تصبحيـن على خيـر.

وصعدت سعـاد الى غرفتهـا، فارتمت على الفـراش... ومكـثت، كذلك لحظات، ثم أخرجت الرسـالة من جيبهـا وبدأت تقـرأهـــا...

« عزيـزتي سعـاد...

بالرغم من عدم رغبتك في قبول رسالة مني، لم أستطع ان امنع نفسي من الـكتابة اليـك...

انت تحبينني وانا احبـك... ونحن ننعـم بالحريَّـة والشبـــاب... فلا شيء يستطيـع ان يمنعنـا من السَّعـــادة... ان المـاضي ليس سوى كلمـة فارغـة لا معنى لهـا بالنسبـة الينـا... انـه لا يهمنــا سوى الحـاضر وحـبـده... أنا وأنت...

محبك المخلـص :

شفيـق »

قرأت سعـاد الرســالة، فإذا بالدّموع تنحدر على وجنتيهـــا واذا بها تهمس حـالمـة :

– « نعم... انا وانت... ولـكن، هل مـات المـاضي حقيقـة ؟... »

قـالت ذلك، ونهضت ثم أخذت تستعرض في خيـالهـا ما تحـويـه حيـاتهـا من احداث...

ـ « ان كل الذيـن كانوا يتمنون لي السَّعـادة، أصبحـوا يدفعونني بأقوالهم الى مقصلـة الوفـاء بـلا أمل... ولـكن، ربَّمـا كـانوا على حـق، حين قـالوا : الزّواج السَّعيـد لا يقـام الا على الحب الخـالـد !...»

قالت ذلك وتقدمت من النافذة المطلة على الجبـل المغطى بالاعشـاب والاشجار والزهـور، فإذا بهـا تتذكـر قصَّـة لقائهـا مـع شفيـق...

ـ « شفيـق ... إلتقيت به ذات يوم في السهـل الـكبير، بينمـا كنت أجمع باقة من زهر الطبيعـة. وعلمت في الحين ان الحب بدونه يذبل ويموت»

أجل ! انهـا تذكـر جيـدا كلماته الدّافئـة التي تخللت سمعهـا لاول مرّة، عندمـا امتدّت يدهـا لقطف زهـور بريّـة...

ـ لقد جمعت باقة جميلة يا آنسة... ان الزهور في هذا المكـان، جميلـة حقـا...

ورأته يقطف بدوره زهرة ويقدّمهـا لهـا في رفق ولطف...

ومضت لحظـات اخرى وكلاهمـا ينظر في عيني الآخر في صمت...

واستطاعت سعاد بعد جهد أن تتغلب على الخجل الذي كبـل لسانهـا وغشاهـا بحمرة جذابـة فقالت : نعم... انهـا جميلـة...

ورأته يقترب منهـا اكثر قائلا :

ـ انهـا باقة رائعة !... لقد أحببت دائما زهور الحقـول...

وفهمت سعاد ، بسرعة، ان تلك الـكلمات الدّافئـة كانت موجّهـة في الحقيقـة اليهـا هي، فأنزلت اهدابهـا خجلا وقد أحسَّت في اعماقهـا بشعور مبهم خفي، واحمرّ وجههـا ثانيـة ولـكنهـا ارادت ان تنقـذ الموقف فأبتسمت ابتسامة خافتة وقالت في شبه همس :

ـ استطيع ان اقدّمهـا اليك كهديَّـة بسيطـة ، ان اعجبتك حقيقـة...

قالت ذلك ومدّت اليه الباقة... الا ان الشاب ابتسم شاكرا وقـال :

ـ اوه... شكرا لـك يا زهرة الحقـل الجميلـة...

فألقت سعاد ببصرها نحو الافق، ثم اجالت به في الحقول الشاسعة الخضراء المليئة بالظلال والاضواء حتى اذا رأت رجالا كثيرين يقومون بقيس بعض الاراضي القريبة، التفتت نحو الشاب وقالت تسأله :

— انت مع هؤلاء العملة ؟

— نعم... انا المهندس... سنبني جسرا صغيرا على هذا الوادي... وسأبقى هنا عدّة اسابيع... وما ان سمعت منه هذا الحديث، حتى خفضت سعاد بصرها في حلم ولم تنبس ببنت شفة... وسمعته يقول لها :

— تعالي معي...

ورفعت اليه بصرها وقالت في دلال مكتوم :

— ولكن... اقصد... الى اين ؟...

فأشار الشاب بيده الى قرية واقعة على الجهة الاخرى من الوادي قائلا :

— الى القرية... تلك التي تقع في الجهة المقابلة... سنبني في وقت قليل جسرا يجمع بين القريتين.

وكأن ما قاله الشاب قد اعجب سعاد فسألته وقد انخفض مدى خجلها قائلة :

— أنت تحب عملك... أليس كذلك ؟

فألتفت نحوها وابتسم لها قائلا :

— ان بناء الجسور عندي لهو فن من الفنون الجميلة...

وصمت قليلا ليقترب منها أكثر ثم قال في هدوء :

— ان الجسر الذي يجمع بين ضفتي نهر صغير يغني... وفوقه وجه فتاة جميلة تطلق الضحكات من ابدع الاشياء عندي...

— اوه... انك تحسن الحديث...

— نعم... ان حضورك هو الباعث في قلبي النشوة والسرور... ولكن...

— ولكن ماذا ؟...

— ولكن... أرى في عينيك سحابا اسود يبعدك عن باقي المخلوقات جميعا...

ـ كيف عرفت ذلك، في مثل هذا الزمن القصير ؟...

ـ عرفت ذلك من خلال عينيك ومن الجزع المجهول الذي يغشي كامل وجهك...

ـ الجزع المجهول ؟

ـ نعم، ألا تريدين أن نكون صديقين ؟ ربّما عندك اسباب تجعلك تحبين العزلة ولكن...

ـ أفضل العودة...

ـ لماذا ؟ انت خائفة ؟...

ـ أوه... لا... لا... ثقتي فيك كبيرة ولكن... الساعة متأخرة ويجب ان أعود الى المنزل...

ـ هل ان احدا ينتظرك ؟

ـ لا... اقصد... نعم...

ـ من ؟ عائلتك... صديقاتك... أو... خطيب ؟

وغشت سحابة سوداء من الوجوم والحيرة وجه سعاد. والتفتت اليه ولم تنبس ببنت شفة...

فابتسم ابتسامة ذابلة وقال لها في رفق :

ـ لك ذلك... مادمت ترغبين في الرجوع... ولكن عودي اليّ غدا... هل توافقين ؟ سأنتظرك.

وابتسمت له بدورها في حنان، ثم وقفت تنظر اليه في عطف، وانصرفت...

وفي طريق العودة، شعرت سعاد بالافكار السوداء تغمر رأسها الصغير... فقرّرت الانفصال عن الشاب وعدم لقائه في المستقبل...

وواصلت سيرها في صمت وهي تهمس في حيرة :

ـ « حقيقة... أنا خائفة !... ان ذكرى حسن تحطم قلبي وتسبب لي أوجاعا في عروقي... »

وبينما كانت تسير وحيدة في الطريق، سمعت صوتا يناديها من خلف :

– سعـــاد... سعـــاد...

فالتفتت صوب الصوت، فاذا بها امام صديقة لها...

– هذه انت يا ليلى ... نعم ... اين أنت ذاهبة ؟ .. اراك تسرعين.

– انا عائدة الى البيت ... ان ابي في انتظاري ... وانت ... اين كنت؟..

– كنت عند أم حسن... يالهـا من امرأة مسكينـة... أظن أن السلوى لن تصل الى قلبهـا الحزيـن أبدا

– لمـــاذا ؟

– لست ادري... ولـكن نحن ايضا لا نفـرح ولن ننسى الـكارثـة التي لحقت بهـا. لقد كنت خطيبـة ابنهـا، كما كنتُ أنا صديقتـه الحميمـة. أنت تعرفيـن هـذا، وتعرفين ايضا انني كنتُ احبـه كثيـرا...

– نعم !... اعرف ذلك، ثم انك لم تخفي ذلك ابدا عندمـا كـان حسن على قيد الحيـاة؟ لقد عملت كل مـا في وسعـك آنذاك لافتكاكه من بيـن احضـــاني...

– أوه... لا فـائدة في ذكـر كل هـذا الآ ن... لقد انتهى...

– نعم... لقد انتهـى...

*

ان السيدة جميلـة كانت تتمنّى على السمـاء لو ترّاجع لهـا سعاد حب ابنها حسن، ذلك الحب الذى تتخيّلـه الامهـات وترى فيـه الحق الـكامـل لابنائهـن. في حين ان ليلى، كانت تشعر بانتصار لان في موت حسن التعاسة والحرمـان لسعـــاد، عدوّتهـا اللدودة، وفهمت سعاد مـا يدور بخلد تلك الافعى ليلى، فقرّرت الاحتيـاط والحذر ما امكنهـا ذلك، واخفـاء حقيقتهـا وحبهـا لشفيق على الجميع، حتى لا يعكـر صفو قلبهـا أحد من الحسّـاد والانـانييـن...

ولـكن، رغم القـرار الذي اتخـذته في رؤيـة شفيق مـرّة اخـرى، فقد احست في يـوم الغـد من انهـا لا تستطيـع رفض طلبـه في اللقـاء... فأسرعت اليـه لتلقـاه على الهضبـة المجـاورة... وكـانت وهي تسيـر على الاعشـــاب الندية بين الزهـور والانـوار، تفكـر في اشيـاء غريبـة :

– « كـان من حقي ان لا اقـابلـه... كان مـا حقي ان لا افعـل هـذا...»

ولـكن، رغم كل ذلك فقد واصلت سيرهـا بين قوّتين متعاكستين، قوّة تدفعها إليه وأخرى تحرّضها على العودة من حيث أتت...الى ان وصلت اليه.

كان واقفا، ينظر الى الافق الخلاب في حلم، كما لو كان يفتش عنها هنـاك... بين زرقتـه الزاهيـة وخضرة الاعشـاب النديـة...

وأحس بقدومهـا، فارتعشت شفتـاه في حب وهمس يستقبلهـا :

ـ صبـاح الخيـر... كنت خائفـا من عدم مجيئك، حتى أني فكرت اخيـرا في الذهـاب لبحث عنـك في القريـة...

فوضعت سبابتهـا بين اسنانهـا وقـالت في شيء من الريبـة :

ـ أوه... لا... لا... لا تفعـل هـذا... يجب ألا يعلم احـد بمـا يجـري بيننـا...

وغشت وجه شفيق علامـات التعجب وقـال يسألهـا :

ـ ماذا ؟... أخبريني بالشيء الذي لا يجب ان يعلمه احد ؟ ممن أنت خـائفة ؟ اخبريني في استطاعتي تحريـرك من كل هاته المخاوف والهواجس التي تكبلـك وتسبب لك هذا اليـأس وهذا القنـوط...

وقبل ان تتكلم، ابتسمت في دلال ثم جلست على الاعشاب وقالت :

ـ لا استطيـع... لا استطيـع... كنت احب شابـا... مـات منذ مدة.. ولـكن... مهمـا يكن من أمـر فإن امـه والناس الآخريـن لا يحملونني على الاخلاص والطهـر، عندمـا يعلمون انني اصبحت اجتمع بشخص آخر ليس من البلـــدة...

فتقدم منها خطوات ووضع يده على كتفها وقال لها في شبه همس:

ـ هذا كل ما هنا لك من الامور ؟ ان الحب خلق لـكي يكلل الاحياء لا ان يعطـر الامـــوات... عليك ان تنظري في نفسك جيدا. على قلبك ان يقبل الحب الذي أقدّمه لك اليوم اذا كان متفتحـا لذلك... والتفتت إليـه، ونظرت له من خـلال خصـلات شعرهـا المتهدلـة على عينيهـا وقـالت :

ـ اوه... لا، لا ! هذا غير معقـول !

فجلس بقربهـا ونظر في عينيها مليا وقال في صوت جـــاد :

ـ سيصبح معقـولا اذا أردت أنت ذلك، ان حبك الثاني هذا يعني دخولك في اجواء جديـدة ساحـرة تبعدك عن العزلـة والوحدة، وليس مجـرد مغامـرة عاطفيـة تحت ضوء القمر...

فوقفت، ونظرت مليا في اللاشيء، ولم تتكلم.

ان ما تحملته سعاد في هاته اللحظة الحاسمة قد بعثرته الرياح رغم الظنون ورغم كل شيء...

فإذا بقلبها يتفتح بدون وعي الى الحياة من جديد...

وسمعته يهمس وقد شدّ على يدها في دفء وحب قائلا لها :

– سنبني مسكننا هناك... فوق تلك الهضبة الخضراء...

قال لها ذلك واقترب منها اكثر ثم شدّ على ذراعيها وقال لها :

– ما رأيك يا عزيزتي ؟ أتريدين ان اطلب يدك اليوم من أبيك ؟

فحرّكت رأسها يمينا وشمالا وقالت :

– لا... لا تفعل هذا الآن يا شفيق، يجب ان تترك لي شيئا من الوقت حتى افكر في الامر مليا.

***

ومضت الايام...

وانتهى شفيق ورجاله من بناء الجسر... فذهب... ولم يحدّد يوم عودته...

وتألمت سعاد لذلك كثيرا وكادت تجن...

الى ان اتصلت ذات يوم برسالة...

كانت منه... من شفيق...

وفتحتها في شوق ولهفة... فوجدت هاته الكلمات :

« عزيزتي سعاد...

يوم الاحد القادم ساتي اليكم لاعلن للجميع عن زفافنا...

لن استطيع... لن اريد الانتظار أكثر...

محبك المخلص

شفيق »

ورفعت سعاد عينيها عن الرسالة ونظرت كعادتها الى اللاشيء في حلم، ثم ضغطت على الورقة في شبه حقد وتحدّ وقالت تحدث نفسها :

— « فهمت . يجب ان اكافح لكي أحصل على السعادة. لقد قال لي شفيق ذات يوم، من ان الجسور السيئة البناء لا تعمر طويلا. يجب ان يكون جسرنا صلب البناء حتى يبقى الى الابد .»

*

وجاء اليوم المنتظر...

كان يوما من ايام الربيع المشرقة الفواحة...

وكانت سعاد لا تعلم جيدا سرّ الشعور الذى تملكها خصوصا حين وجدت نفسها جالسة قرب والدها في حديقة البيت. كانت ترغب في خوف قدوم شفيق...

كانت حائرة...

وفي شيء من اللاوعي شعرت بنفسها تهمس :

— « كان من حقي اعلام أبي وأمّ حسن بقدوم شفيق... كان من واجبي اعلامهما... »

وفي هاته اللحظة رأت من بعيد العجوز جميلة — ام حسن — وهي تسير مع ليلى عدوّتها اللدودة... فاقتربت منهما وكأن قوّة مجهولة تدفعها للحديث الى أي شخص كان...

وما ان وصلت اليهما حتى بادرتها ليلى بقولها :

— سعاد، تعالي نجمع معا باقة من الزهور نضعها على قبر حسن...

فنظرت سعاد الى الارض وصمتت قليلا قبل ان تقول في تلعثم :

— سألحق بكما بعد قليل... أنا... انا أترقب الآن... صديقا...

فرفعت ليلى حاجبيها تعجبا وقالت تسألها :

— صديق ؟...

— نعم.

— أليس المهندس الذى جاء مع رجال لبناء الجسر ؟ سمعت الناس في القرية يقولون اشياء كثيرة... ولكنني لم اصدق ذلك طبعا...

ونظرت اليها سعاد نظرة عميقة، وابتسمت ابتسامة ذابلة مليئة

بالاســرار وهمست تحدّث نفسهـا : « صبرا يا سعــاد... يجب ان تدافعي عن حبك... انهـا اللحظـة الحاسمـة... » وخاطبت ليلى بقولهــا :

– اظن انـك تعجبت... خصوصـا وان هذا المهندس هو خطيبي... وسنتـزوّج قـريبــا...

– أوه...

– تكلمي... ما بالك لا تنطقين ؟...

– في الحقيقـة... يظهـر لي أنـك نسيت بسرعة عجيبـة حسن المسكين..

فنظرت اليهـا سعـاد وقد غشت وجههـا سحابة من الحزن وقـالت في صوت بـاك :

– من يدري لعل فرح الامـوات لا يكـون الا بسعـادة الاحيــاء...

قـالت ذلك والتفتت الى العجـوز وخاطبتهـا قائلـة :

– أليس كذلك يا خالـة ؟

ولم تنبس العجـوز ببنت شفـة وادارت رأسهـا ورجعت الى بيتهـا وهي تبكي في صمت. وتبعتهـا ليلى من خلف...

بينمـا بقيت سعـاد واقفـة تنظر اليهمـا في حزن والدمع يملأ جفـونهـا المتعبـة...

∴

ومضت الايـام ثقيلـة مترعـة...

وتزوجت سعـاد من شفيـق... وكـان زواجـا مرمـوقـا... حضره كل من في البلـدة من اصدقــاء واحبــاب وأقـارب... فكـان الرقص والضحك..

وفي نهـايـة الحفـل، وحين انتهى كل شيء وعــاد كل شخص من حيث أتى، نظـر بعضهم في منـزل العجـوز فإذا الظـلام يغمرهــا، والسكون يحف بهـا من كـل مكــان...

فسرى الرّعب والخـوف في قلوبهم...

فاقتحمـوا الـدّار... فإذا بهـا ميتــة.

البشير التلمودي

اضواء الفكر

♦ المسرح التونسي و... علي بن عياد في بيروت

نشر في جريدة « الاحد » البيروتية عدد 668 حديث لممثلنا النابغة علي بن عياد مدير الفرقة البلدية للتمثيل اجراه معه سمير شمص احببنا ان ننقله لقرائنا الكرام تعريفا بنشاط علي بن عياد في الخارج وتأكيدا لما يتمتع به المسرح التونسي في بلاد العروبة من تقدير :

ما أكاد أتذكر الدور الذي لعبه هذا الممثل والمخرج التونسي الفتي في (كاليغولا) رائعة البيركامو التي قدمها على مسرح الامم في باريس مع خمسة وعشرين ممثلا محترفا من أفراد فرقة المسرح البلدي في تونس حتى احكم على امكانياته الفنية من خلالها ، لانها بالاضافة الى القصة المشوقة والحوادث الحية تجمع بين نزعات الانسان ورغباته مجتمعة ، فتصور الحب والحقد والقوة والضعف ، والايمان والكفر ، والعظمة والخنوع ، وكل هذه المؤثرات التي تسيير احساسات البشر التقت في رائعة كامو ليمثلها علي بن عياد ويكون منها نقطة انطلاق بالنسبة للمسرح التونسي المعاصر .

اما الطريف حقا فهو ان تقدم في باريس بلد الحساسية والذوق ، باللغة العربية .

أجل ، فقد ملك على الجمهور الباريسي حواسه وجعله يحصر انفاسه في كل خطوة وكل حركة يؤديها ، ومما يشجع ان الصحف اهتمت بشكل غريب بهذه المسرحية بعد تمثيلها وقالت ان الممثل الناجح علي بن عياد استطاع أن (يسمع) الجمهور دون أن يفهم كلمة واحدة عليه وهذا عين الابداع .. ولم يكن هذا الفتى ممثل المسرحية البطل فحسب ، بل مخرجها فكما صفق الناس للامبراطور الاعظم الذي يشاهدونه صفقوا ايضا للمخرج القدير الذي استطاع ان يسيطر على الاجواء ، ويخلقها ببراعة تامة .. وقد علق الصحفي الفرنسي « جاك لومارشان » على هذا العمل الضخم بقوله : « كانت المسرحية مثيرة ومشوقة وتعتمد على الصدق في التعبير والاداء ، وهي من روائع كتابات « كامو » وابرز ما لا حظته فيها هو الامبراطور الفتي الذي ملأ المسرح بروحه الفياضة وحيويته التامة ، واعتقد بان هذا الممثل ادى دوره بكل قوة » .

ثم اتى على ذكر حوار المسرحية واتجاهاتها فقال : « ان الحب فيها يتغلب فيها على الكراهية وطريقة علي بن عياد في اداء دوره كانت تدفع فيها نحو مدرسة شكسبير الكلاسيكية المحببة والجديدة لدى الجمهور الفرنسي » .

وبعد مسرح الامم الذي يعتبر ملتقى الطاقات الفنية العالمية منذ عشرة اعوام سيمثل علي بن عياد بلاده رسميا في مهرجان فينيسيا العالمي للمسرح برفقة الفرقة البلدية التونسية التي يعمل فيها بصفة مخرج ومدير و (جان برمير) وستشترك جميع دول العالم المهتمة بالمسرح في هذا المهرجان ويأمل علي بن عياد ان يقف موقفا مشرفا لبلاده ..

وهو بالاضافة الى اهتمامه الخاص بالمسرح التونسي فله محاولات عديدة للمساهمة في تشجيع باقي الدول العربية في هذا المضمار والدليل على ذلك انه يقوم حاليا بجولة في بعض الاقطار العربية واولها لبنان للتعاقد مع بعض الفنانين والفنانات استعداد لتقديم اعمال مشتركة ثم يحاول بعد هذا أن يدفع بهم ويحثهم على العمل كل ضمن بلده .

وفي لقاء معه في فندق الكارلتون تدارسنا معا مشاكل الوضع المسرحي في كل من تونس ولبنان وابدينا الحلول والاقتراحات الروتينية التي ترددها الصحف وتطالب بها كل يوم ..

وردا على سؤال اول اجاب :

ـ ان العلاقات الثقافية الفنية بين تونس ولبنان متينة ولا شك ، وتجمع هذين البلدين وحدة الكفاح والمصير ، فنحن متقاربون فى شتى الميادين ونجتهد فى نفس الوقت للتخلص من كابوس التخلف الذى ما زلنا نتخبط فيه ، وفى زيارتى لبلدى الثانى لبنان احاول ان ادرس امكانية تبادل الفنانين بيننا وبينكم .. وقد قمت بخطوة اولى فاخترت الآنسة تيودورا راسى للاشتراك معى فى أعمالى القادمة ، وستذهب برفقتى الى تونس .

وسألته :

ـ ما هى الاعمال التى ستباشرها فور عودتك ؟؟

ـ سأهتم بادىء الامر بتنسيق المركز الثقافى العالمى فى تونس وتجهيزه ، ففيه مسرح كبير سمحت لنا الحكومة بالعمل فيه مؤخرا ..

ـ وما هو الدور الذى ستخص الانسة تيودورا به ؟

ـ « ديدمونا » فى مسرحية عطيل .

ـ هل سبق ان مثلت هذه المسرحية ؟

ـ مثلتها واخرجتها فور تخرجى من المعهد القومى فى باريس ..

ـ وهل درست فى غير هذا المعهد ؟

ـ كلا انما قمت بزيارة للولايات المتحدة وشاهدت معظم مسارحها .

ـ على أية مسارح عملت ؟؟

ـ على مسارح صفاقس وتونس وسوسة وبنزرت وكلها فى تونس كما ظهرت فى مسرحية كاليغولا على مسرح الامم فى باريس وسامثل بلادى فى مهرجان فينيسيا العالمى للمسرح .

ـ هل تفكر بالعمل هنا ، فى لبنان ؟؟

ـ انا احلم ككل فنان مسرحى فى جميع انحاء العالم ان امثل بين هياكل بعلبك لما لها من شهرة فنية بعد المهرجانات العالمية التى تقام فيها ..

ـ ومتى ستحقق هذه الامنية ؟؟

ـ فى المهرجان القادم .. ان شاء الله ..

ـ هل تفكر فى مسرحية معينة تقدمها ؟

ـ كاليغولا باللغة العربية ..

وأظن انه فاتنا ان نشرح ما فيه الكفاية عن هذه المسرحية الهامة .

فهى لم تعرب بحوارها فقط انما بكل شخصياتها وحوادثها الغريبة .. فقد احدث فيها المعرب « انقلابا » فى شخصياتها وحوادثها وحرص فقط على روحها وفكرتها وتسلسل الحوادث فيها ..

وعدت اسأله :

ـ فى زيارتك هذه ، ما هى الفكرة التى كونتها عن المسرح اللبنانى ؟

ـ عرفني بعض الاصدقاء على مسارح عظيمة هنا ، ولكن للاسف ، الجيد منها مخصص للارستوقراطيين والاغنياء والسيء ترتع عليه الراقصات والنمر العادية .. والمسرح بمعناه الحقيقي مفقود هنا .. وقد زرت مسرح التياترو الكبير للاستطلاع فوجدته مصمما بشكل دقيق ومتكامل ولكنه مهمل بحيث اصبح منسجا للعناكب واوكارا للفئران .

ولا شك انه كان لهذا المسرح اثر مرموق منذ وقت قريب ..

وراح بعد هذا يشرح باسترسال عن أشياء كثيرة مرت بخاطره وكيف ان المسرح لم يكن له اي وجود عند العرب وكانوا يعتبرونه عيبا ، حتى أن الصور كانت ممنوعة ، ثم اتى على ذكر المسرح اللبناني بحدوده المعروفة فاثنى على جمهوره وقال لو قدر له ان ينهض من ركوده لاثبت انه في المقدمة ولكن يظهر ان الاسباب غير متوفرة لتشجيعه والاهتمام به .. واظن ان هذه الحالة لن تدوم اكثر من سنة ...

وسالت مدير الفرقة البلدية في تونس رايه بالتطورات الايجابية التي تتخذها الحكومة التونسية في سبيل تطوير المسرح فاجاب :

ـ ان الحكومة التونسية تخصص اعتمادات للفرق المسرحية عندنا وتقدر بعشر فرق .. وفي المرحلة الثانوية من التعليم هناك حصة اجبارية لتدريس التمثيل اجباريا واذكر ان رئيس الجمهورية القى محاضرة بنفسه عن المسرح وقام برعاية معظم المسرحيات التي قدمتها ..

وفي عام 1956 قامت الحكومة بتاليف الفرقة البلدية للتمثيل التي اتولى ادارتها مساهمة منها في تطوير المسرح التونسي وهذه الفرقة تضم 25 شابا وفتاة وكلهم من المحترفين .

• الادب التونسي يعتد بنفسه

زار تونس في الايام الاخيرة السيد محيي الدين صبحي مراسل مجلة الآداب من دمشق واجتمع حوله بعض الادباء التونسيين للتحدث في وضع الشعر بتونس ـ ونلاحظ بكل الاسف ان الادب التونسي لم يكن ممثلا في هذه الجلسة كما كان يجب ان يمثل كما اننا ناسف لتنكر بعض الشبان من الناشئة الادبية للادب التونسي والحكم عليه بالافلاس والعقم . ونحن اذ نؤمن بالالتزام الانساني الذي يكفر بالمحلية الضيقة ويابى ان يكون بضاعة المفلسين ، وندعو الى توثيق الصلات الثقافية بيننا وبين المشرق العربي ، لا نرضى بالتتلمذ للاسماء التي قلما تساوي شهرتها قيمتها ، اذ نعلم ان بتونس ادباء يعتدون بادبهم ونهلوا من عيون الشرق والغرب جميعا ولكنهم عدموا وسائل الدعاية والنشر حتى جوزوا بعقوق ذويهم ـ وهل عرف التونسيون قيمة الشابي قبل ان يصفق له الشرق ؟

ولو امكن للضيف الكريم ان يتصل بالاوساط الادبية بتونس لما تسرع في حكمه على الادب التونسي .

• الشعر في بنزرت

اصدرت كتابة الدولة للثقافة والارشاد الحلقة الخامسة من العكاظيات جمعت فيها كل الشعر الذي قيل في معركة بنزرت ـ ونعلم ان عكاظيات بنزرت توجت بمسابقة شعرية نجح فيها السادة الشعراء : محمد مزهود والحبيب المستاوي واحمد اللغماني والناصر الصدام وجلال الدين النقاش واحمد خير الدين ولكن هذه القصائد الناجحة لم تطبع في الحلقة الخاصة بهذا الحدث العظيم لتاخرها عن صدورها فنرجو ان تلحق في حلقة مقبلة .

◆ ابو الحسن الحصري

اصدر الباحثان محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى كتابهما عن الحسن الحصري الذى كنا اخبرنا عنه فى هذه الزاوية ونشرنا قطعة منه ـ وهو يشتمل على ديوان اقتراح القريح واجتراح الجريح وعلى معشرات الحصرى وما تفرق من شعره فى مراجع الادب ، ونحن اذ نبتهج لهذا العمل العظيم الذى قام به الاديبان المخلصان ونشكر المحققين على هديتهما لمجلة «الفكر» وندعو الادباء التونسيين الى الكشف عن كنوزنا الضائعة ، ونبشر القراء ان الاستاذين المرزوقى وابن يحيى يشتغلان بتحقيق القسم الخاص بالمغرب من خريدة العميد الاصفهاني .

فبارك الله فى جهودهما !

◆ تكريم الرسم التونسى فى ايطاليا

افتتح تحت اشراف قسم السياحة لبلدية ميلانو معرض للفن التونسى المعاصر بميلانو باشراف السيد توفيق الترجمان سفير تونس بايطاليا وقد خصصت عدة جوائز تتمثل فى ميدالية ذهبية اهدتها بلدية ميلانو ورحلة بين تونس ـ رومة ـ تونس هدية من شركة «اليطاليا» للطيران وقد فاز بالجائزة الاولى الرسام محمود السهيل على لوحته ـ المدللة ـ

والجدير بالملاحظة ان هذا الرسام النابغة كان تحصل فى السنة الفارطة على جائزة بلدية تونس العاصمة للرسم .

وحصل على الجائزة الثانية وهى ميدالية ذهبية اهدتها الادارة البلدية لميلانو الفنان زبير التركى على لوحته ـ لوحة من الطبيعة ـ

اما الجائزة الثالثة وهى ميدالية ذهبية فقد اهداها الديوان البلدى للسياحة بميلانو للفنان بلخوجة على لوحته ـ تونس ـ

وقد شارك فى هذا المعرض عبد العزيز القرجي وعلى بلاغة وعمار فرحات والهادى التركى وغيرهم .

وشاركت كذلك السيدة صفية فرحات فى معرض للرسم نظمه قسم السياحة ببلدية البندقية .

◆ دور المثقف فى المجتمع المتخلف

نظم « نادى ابو القاسم الشابى » ندوة ادبية شارك فيها جمع من الادباء ورجال الفكر بتونس حول دور المثقف فى المجتمع المتخلف .

وقد دارت الحلقة الاولى من هذه الندوة مساء الجمعة 25 جانفي وتناول الكلمة الاساتذة محمود المسعدى واحمد بن صالح ومحمد مزالى واحمد عبد السلام وفاضل الجمالى والشاذلى الفيتورى والمنجى الشملى .

وسنعطى فى أعدادنا القادمة ملخصا لما جرى فى هذه الندوة الهامة بعد انتهاء حلقاتها الثلاث. الا اننا نريد فى هذا العدد التنويه بمجهود هذا النادى النشيط ونبارك المستوى الذى بلغه المشاركون فى هذه الندوة من حيث جدية التحليل وسمو التفكير وحيوية المناقشة .

الفهـــرست

العدد ـ 5 ـ فيفرى 1964 ـ السنة التاسعة

الفكر

مجلة ثقافية

تصدر بتونس شهريا

مؤسسها ومديرها المسؤول

محمد مزالى

رئيس التحرير

البشير بن سلامة

الادارة : 13 نهج دار الجلد ـ تونس

تليفون : 778 260

الحساب الجارى : 33769 تونس

العنوان : صندوق البريد 556 تونس

- تصدر مجلة الفكر عشر مرات فى السنة وتحتجب فى شهر اوت وسبتمبر
- قيمة الاشتراك السنوى :
  - اشتراك عادى فى تونس دينار و 200م
  - اشتراك الانصار 3 دنانير
  - فى المغرب وليبيا دينار ونصف
- الاشتراكات يرسل معلومها فى حوالة بريدية باسم المجلة او يصب فى حسابها الجارى
- الرسائل لا ترد نشرت أم لم تنشر
- المراسلات تكون جميعا باسم : مدير مجلة الفكر صندوق البريد عدد 556 تونس

EL FIKR - Revue mensuelle culturelle - 9e année - N° 5 Février 1964

طبع وحفر الشركة التونسية لفنون الرسم 20 نهج المالطيين ـ تونس